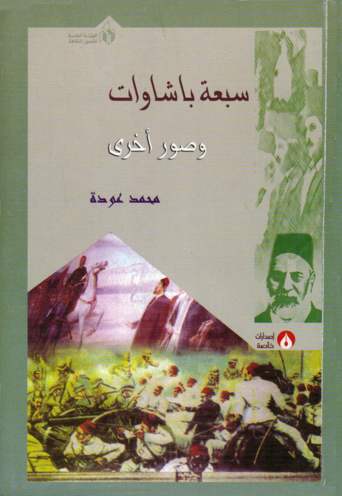

سبعة باشاوات
وصور أخرى
محمد عودة
إصدارات
خاصة

سبعة باشوات

وصور أخرى

محمد عودة



يناير

2005



◇ قبل أن تقرأ



كان من تقاليد الأرستقراطية البريطانية فى القرن التاسع عشر قضاء اجازة عيد الميلاد وأحيانا فصل الشتاء فى مصر مابين القاهرة والأهرام والمتحف المصرى ثم الأقصر ثم أسوان.. والعودة !

وكان هناك طائفة من التراجمة والأدلاء يجيدون اللغة ويقومون بمرافقتهم .

وجاء «ويلفرن سكاون بلانت» وزوجته ومعهما توصية من أحد أصحابهم إلى طالب أزهرى يقوم بالمهمة اسمه إبراهيم .

وبمحض الصدفة التقيا بإبراهيم آخر كان يمارس المهنة ولكنه كان أيضا من شباب الثورة العرابية المتحمسين وكانت فى أوجها.

وكان ذلك نقطة التحول فى حياتهما .

فتن الزوجان بمصر القديمة وآثارها وترابها، ولكن بفضل إبراهيم فتنا بالحضارة القديمة وآثارها وتراثها وفتنا أيضا وبنفس القدر بأن الشعلة لازالت متقدة وعلى أشدها، وأن

المصريين يواجهون بشجاعة وبراعة خصما أشد وأقسى هو الإمبراطورية البريطانية التى تحكم.. وتحكم حتى أمواج البحار كما يقول نشيدها الوطنى .

واستطاع المرافق الأزهرى أن يقنع السائح البريطانى وأن يجنده لقضية بلاده بل وأن ينذر لها حياته، بل وأصبح كما سماه عرابى والشيخ محمد عبده وزير خارجية الثورة ومرشدها فى غابة الدبلوماسية البريطانية والأوروبية .

وشارك بلنت مع عرابى والشيخ محمد عبده فى تكوين وإعداد برنامج الحزب الوطنى المصرى وأصبح من قادتة .

وبعد أن هزمت الثورة كتب بلنت كتابا كلاسيكيا بعنوان «التاريخ السرى للاحتلال البريطانى لمصر» فضح فيه كل مخازى السياسة والدبلوماسية البريطانية والتى وصفها بأنها (أقذر وأحط وأسفل سياسة ودبلوماسية فى تاريخ القرن).

وقرر بلنت أن يتخذ له بيتا فى مصر يقيم به أكثر فصول السنة، وفجع فجيعة كبرى بمأساة دنشواى ونصح كرومر والحكومة البريطانية بتعيين سعد زغلول وزيراً لأنه وحده الذى يستطيع أن يضمد هذا الجرح الدامى وأن يعيد بعض الثقة للمصريين .

وعملت الحكومة بالنصيحة وعين سعد زغلول وزيراً للمعارف وقال كرومر وهو يغادر مصر: «لقد علمنى سعد زغلول كيف أحترمه وإننى أتوقع له مستقبلا فذا فى حياة بلادة» .

كان بلنت يؤمن أن المصرى يختزن فى أعماقه أثمن تراث قديم ووسيط وحديث وأن الشعب العريق لا مناص أن يسترد نفسه بل إنها تذبل أحيانا ولكن لا تضيع قط .

وقدر لمستر بلنت أن يعيش حتى تتحقق نبوءته، وحين انتفض الشعب المصرى فى ثورة ١٩١٩ بزعامة سعد زغلول كان أول المهنئين وبعث إلى سعد فى باريس يهنئة ويؤكد له أن الشعلة لن تنطفئ بعد الآن.. وقد حاولت أن أحقق نبوءته فى هذا الكتاب الذى تعيد هيئة قصور الثقافة طباعته والذى قدم طبعته الأولى الصديق العزيز الكاتب الكبير يوسف ادريس .

محمد عودة



هذا الكتاب

بقلم/ د. يوسف إدريس

أعترف أنى من مدة طويلة لم أقرأ كتابا انفعلت به إلى هذه الدرجة.. إن قصة المنفى، قصة الزغلوليات، ونازلى. وطبيب الولادة، هذه كلها كنوز حية كانت مخبوءة.. حافلة وغنية ودسمة ورائعة ومحبوبة... وجاء هذا الكتاب ليكشف عنها الغطاء ويجسدها حية نابضة أمام أعيننا نتأملها ونستوحيها ونقف أمامها طويلا طويلا .

وأن يجيء هذا الكتاب من الصديق الفنان محمد عودة ليس بالأمر الغريب فهذه ثانى مفاجأة يفاجئنى بها فى حياته .

كانت مفاجأته الأولى لى كتابه عن الصين الشعبية.. بل كانت المفاجأة الأولى فى الحقيقة هى محمد عوده نفسه. كان اكتشافا لم أعمل له حسابا قط.. فى أواخر سنواتى بكلية الطب بدأت أكتب وبدأت أتعرف على مجالس الكتاب من ذلك الحين وبالذات

مجلس المرحوم الدكتور إبراهيم ناجى الذى كان محله المختار.. مقهى «إيزافتش»، هناك حول سندوتشات الفول والمشروبات الرخيصة كان يدور كلام كثير حول الأدب والفن والخلق والقصة والشعر، وكنت فى العادة آخذ موقف المستمع المستغرب لكل ما يقال غير الموافق على معظمه .

كنت قد بدأت أتطلع من بعيد إلى عالم الفن، ذلك الذى لم أتصور طيلة حياتى أن ستكون لى به صلة. كنت قد أعددت نفسى تماما للعلم وبإرادة حديدية كنت قد وطنت نفسى ألا أحيد عن الطريق، فإذا بذلك العالم السحرى يخلب لبى وينتزع بصرى انتزاعا حتى لم أعد أستطيع رؤية سواه .

فى ذلك المقهى، ومهما كان الوقت الذى أذهب إليه فيه، أو أمر من أمامه، كنت دائما أرى إنسانا غريبا جالسا يحدق فى اللاشىء وفى كل شىء. إنسانا تنطبع ملامحه فى ذاكرتك منذ الحظة الأولى، وأبدا لا تستطيع بعد نسيانه، كنت كثيراً ما أفكر فى هذا الإنسان وأحاول أن أخمن من يكون وماذا يفعل وما السر الغريب وراء تحديقته المستمرة .

بعد أعوام قليلة أصبحت كاتبا وصدر لى أول كتاب، وبدأت أنا الآخر أفضفض ببعض ما أعتقده عن الفن والكتابة، وذات

يوم وقع فى يدى كتاب أصفر الغلاف ما كدت أبدأ فى قراءة أول صفحة منه حتى وجدتنى قد غرقت فيه تماما ونسيت كل ما حولى. كان الكتاب عن الصين الشعبية وقصة ثورتها الطويلة المهولة بكل ما فيها من نجاح وانتكاس .

كتاب غريب حقا لأنى بعد قراءتى لكتب المادية التاريخية أصبح تاريخ أى شىء وبالذات تاريخ الثورات الشعبية معادلات بسيطة لا تأخذ أكثر من دقائق لتحلل بها تاريخ أى شعب وتستوعب ثورته. ولكن كتاب محمد عودة هذا عن الصين الشعبية، جاء شيئا آخر، لم يأت معادلات جامدة، ولا تحليلا تقليديا معتادا وإنما جاء قصة رائعة مجيده تنبض بكل قوانين التاريخ وتجعل من ملاحمه دراما حية.. إنه التاريخ حين يكتبه فنان بارع حقا، واسع الخيال إلى درجة القدرة على تجسيد الحقائق .

موغلا فى الإيمان بالموضوع الذى يكتب عنه إلى حد الخلق، خلقه حيا، جديدا، ساطعا وكأنك تراه أو تقرؤه لأول مرة ولأول مرة تسمع عنه .

كان الفرق بين كتاب محمد عودة عن الصين الشعبية وأى كتاب تاريخ آخر هو أن كتب التاريخ تحوى الحقائق فقط، الحقائق وقد جردت من طاقاتها ومخزوناتها الانفعالية، حقائق

ميتة كالأرقام والإحصاءات، كتاب عودة عن الصين الشعبية كان كتاب حياة، مليئا بالحياة، صادقا إلى الدرجة التى كنت أحس فيها أنى لا أقرأ عن تاريخ الصين وثورتها وإنما أقرأ عن تاريخ شعبى أنا وثوراته.. هذا هو منتهى الصدق.. وهذه هى قمة الحقيقة، فالحقائق الناقصة هى التى تبدو وكأنها حقائق جامدة، الحقائق الكاملة فقط هى التى تتصل اتصالا وثيقا بحقائق الكون الكبرى وحقائق الحياة، هى التى تبدو فيها قصة الشخص الحقيقية وكأنما هى قصة كل الأشخاص، وقصة الشعب الحقيقية وكأنها قصة كل الشعوب.. وقصة الثورة الحقيقية وكأنها قصة كل الثورات .

أما المفاجأة الثانية أو الثالثة فقد كانت هذا الكتاب الذى أعتز بتقديمه إلى القراء، وأعتز أكثر أن الصديق الفنان محمد عوده هو الذى طلب منى هذا .

ذلك أن علاقتى بمحمد عودة واحدة منْ أندر وأغرب وأعقد العلاقات التى تحفل بها حياتى.. وكلمة الصديق نفسها غير كافية أبدا للتعبير عن كل ما تزخر به تلك العلاقة وتحفل... إنها علاقة خصبة غنية، أوسع وأرحب من أن تكون صداقة وأحفل من أن تكون زمالة ومليئة بخلافات ومتناقضات لايمكن أن

تندرج تحت باب الاتفاق الكامل. علاقة حافلة بالشد والجذب والمحبة والغضب والوئام والاستنكار الشديد والعراك فى بعض الأحيان. ذلك أنها علاقة مع إنسان فنان.. والفنان الحقيقى كون حافل، وحافل بكل ما تحفل به الأكوان من ماسات نادرة وصحارى وجبال ووحوش وغابات.. غير أن الذى أستطيع أن أؤكده هو أنها علاقة لا يمكن أن تنتهى أو تنقطع، مهما حملناها من أثقال، فمحمد عودة واحد من المثقفين القليلين فى مصر الذين يؤمنون إيمانا يبلغ حد الهوس - والهوس هنا ليس عيبا وإنما هو فى رأيى قمة الإيمان - بثلاثة أشياء هى نفسها كل ماوهبت نفسى له :

هو ثائر ومؤمن بالثورة .

وهو شعبى ومؤمن بالشعب .

وهو اشتراكى ومؤمن بالاشتراكية. تثور البراكين وتخمد، وتتزلزل الأرض وتتشقق، يتغير الحكام الكبار والصغار ويتبدلون. وعودة هو ذلك المؤمن العنيد بهذا الثالوث المقدس، لا يتزحزح لا يتراجع، لايهادن، لا يغفر. وهو ليس إيمانا أعمى ولا إيمانا سهلا أيضا، إنه معركته المستمرة المتصلة مع كل الناس أحيانا إذا اقتضى الأمر .

حتى مع الاشتراكيين أنفسهم والشعبيين والثوريين، فالإيمان عنده ليس شيئا عقليا يرتاح إليه وينتهي، إنه حياته وطريقة حياته وهدف حياته .

وأشهد أن عيونى كانت أحيانا تغرورق بالدموع وأنا أقرأ له بعض صفحات هذا الكتاب.. صفحات لا أدرى متى كتبها ولا أين كتبها ولكنى كنت أحس أن كاتبها واحد من هؤلاء الذين تصوفوا فى حب مصر والمصريين، باعوا كل شيء واشتروا هذا الحب وزاولوه واختزنوه وعاشوا يتغذون من رحيقه .

قد تبدو مقالات، كبعض المقالات، قد تبدو مبتورة النهاية فى بعض الأحيان بطريقة تغيظ وتقطع النشوة.. قد تبدو نتفا متفرقة من كتابات جبرتى حديث مجنون راح يضرب فى صفحات الحاضر بحثا عن الماضى ويجوب آفاق الماضى ليضع يده على قلب الحقيقة من الواقع الحاضر، ولكنى هكذا أخذتها لقد أحسست أنها جزء من لحمى أنا ودمى وعظامى، جزء منى، من ذلك الكل الكبير، من بلدى وشعبى وناسى.. حتى نازلى الذكية الأرستقراطية المتعجرفة، شعبها محمد عودة ومردها وثورها وجعلها تبدو كبطلة فى أسطورة شعبية .

إن الميزة الكبرى لمحمد عودة، تلك التى تفرقه عن أى كاتب

سياسى آخر أو عن أى مفكر آخر أو مؤرخ وكاتب قصة آخر، أنه يكتب التاريخ إذا كتبه، ويصور الحاضر إذا صوره، كما يحب أن يكون، وكما يجب أن يكون.. وربما يقال إن هذا هو عيبه الأكبر. ولكنه قانون النبوغ الأوحد.. إن الميزة الأعظم دائما هى العيب الأعظم .

وإنى هنا إنما أقدم ميزته الأعظم، أما العيب فأتركه لغيرى من الناقدين والمتناقدين .

لقد قلت مرة فى كلمة لى عن محمد عودة إنه الباحث عن الجوهرة المكنونة فى قلب كل شىء، إنه مفتش الكون العام، وربما من هنا يأتى تحديقه الدائم وذهوله. فهو باستمرار فى حالة بحث دائم عن جوهرة الحقيقة الكبرى من الناس والأشياء.. والأصدقاء والثورات والتاريخ. وكثيرا ما يئوب من بحثه خائب الأمل، وتبدو خيبة الأمل واضحة تماما فى ملامحه وكتاباته.. ولكنه فى أحيان، أحيان قليلة نادرة، يعود منشرح الأسارير واسع الابتسامة، قد تحددت نظراته الساهمة وقالت: وجدتها.

وإنى لأشكرك يا محمد عودة، فالآن وبعد أن انتهيت من قراءة هذا الكتاب الثانى لك أهتف أنا الآخر مرة ثانية، وجدتها . أشكرك. فلقد بلغتنى الرسالة .



◇ أسطورة الباشوات السبعة



لقد كانت حياتهم هنا أسطورة وقد خلفوا وراءهم ذكرى حية دائمة فى قلب وروح سيلان .

«أنا لست هندية كما قد لا تعلم»

وابتسمت ابتسامة وديعة عذبة وقالت :

– أنا من جزيرة صغيرة جميلة تبعد أربعين ميلا فقط عن الجنة .

– وما الذى يبقيك هنا.. بعيدا عن الجنة ؟

– قصة طويلة.. لا تهمك الليلة .

– كيف؟ أنا كاتب قصص وقد جئت من مصر إلى الهند أبحث عن قصص ؟

وحملقت فى وجهى طويلا وقالت: من مصر ؟

– نعم بلد الأهرام والنيل ورأس نفرتيتى وكنوز توت عنخ آمون .

– هذا لا يعنينى كثيرا، إن مخازن العجائب تزخر بها الهند هنا.. إننى أعنى دائما بالحقيقة الواقعة .

- إذن أنا من مصر.. من بلد يخوض معركة الحرية والحضارة ربما منذ ستة آلاف عام وبلا توقف وبلا كلل وبلا استسلام للهزيمة أو الانتصار على السواء .

- هذا أفضل قليلا.. وهذا أستطيع أن أفهمه لقد لعبت مصر هذه فى حياتى دورا كبيرا.. هل تصدق ؟

- حياتك أنت ؟

.. حياتى أنا.. ولقد كانت هناك أسطورة مصرية من الواقع الحى تعيش فى سيلان ولا تزال تعيش وتروى هناك .

وقد استمعت إليها ذات يوم من عمدة بلدنا فى كاندى وظلت مخزونة فى نفسى حتى استيقظت ذات يوم وغيرت مجرى حياتى كله. وفى كاندى كنت أذهب دائما إلى «موديليار عبد الرحمن» عمدة البلدة السابق وأكبر أهلها سنا وصديق جدى الحميم، وأظل طويلا لديه ليروى لى قصصا عجيبة عن تجاربه خلال مائة عام طويلة عاشها فى الجزيرة ولم يغادرها أبدا .

وذات يوم روى لى موديليار عبد الرحمن قصة الباشوات السبعة أو عرابى باشا والباشوات السبعة كما سماهم. وهم سبعة باشوات قاموا بثورة فى مصر ضد الإنجليز بعدما استولوا على بلادهم. وجاء هؤلاء الباشوات مهزومين منفيين إلى

سيلان ولكن بدلا من أن يستسلموا للهزيمة اتخذوها وطنا وبدءوا حياة جديدة وقلبوا كل حياة الجزيرة رأسا على عقب وتركوا فى كل مكان أثرا باقيا !!

* * *

وذات يوم بعد عام طويل تلقيت خطابا من سيلان وكان من شيلا: «إننى أعيش عمرى الثانى هنا ولابد أن تحضر لترانى ولتقيم معى أسبوعين على بعد أربعين ميلا من الجنة. إن المعركة مستمرة حتى آخر لحظة من حياتنا، وجميل أن يحقق الإنسان انتصاره الأخير فى الأرض التى خرج منها» .

«إننى الآن أنظم نقابات عاملات الشاى فى سيلان، إنهن أشقى صور الإنسانية وعما قليل سيضع هؤلاء اسم سيلان على خريطة العالم السياسية الثورية» .

«إننى أريدك أن تحضر. إننى فى حاجة إلى أوقات جميلة كتلك التى قضيناها فى بومباى وقد قابلت مودليار عبد الرحمن الذى لا يزال حيا.. ألا تريد أن تزور قبور مواطنيك فى سيلان وأن تكمل قصة البحث عن نفسك أو الهرب منها» .

وسافرت إلى سيلان.. إلى كاندى حيث كانت تعمل «شيلا» وحيث عاش يوما الباشوات السبعة وحيث يحفظ مودليار عبد

الرحمن ويروى قصتهم وتراثهم .

وذات يوم سار موكب فى شوارع كاندى يتقدمه هذا الكهل الذى لم يزل يحتفظ بحيويته فى القرن الثانى من عمره، وقد حملة على محفه فرقة من عاملات الشاى وإلى جواره سارت شيلا معى لنكتشف آثار العرابيين فى كاندى .

وانطلق مودليار عبد الرحمن يروى مرة بالعربية التى يتكلمها ومرة بالإنجليزية التى يجيدها أكثر .

– لقد كانت أول مرة رأيت فيها عرابى باشا يوم خرج للناس من عزلته ليصلى الجمعة وقد جاء أعيان كاندى من المسلمين ليشهدوا ويرحبوا «بالباشا المصرى» الذى قدم .

ولم يكد يدخل المسجد حتى شعر الجميع بهيبة كبرى واحترام.. كان مجرد منظره بقامته وكبريائه بساطته أيضا كفيلا بأن يحول إليه كل الأبصار .

وبعد الصلاة تكلم عرابى باشا قليلا ولم يفهم كلامه سوى قليلين ولكنهم مع ذلك أنصتوا جميعا لأنه كان يتكلم بإخلاص وحرارة .

ولم تمض أيام حتى كان بيته هنا على الربوة العالية هو مقصد الجميع فى كاندى .

ولقد كان المسلمون فى ذلك الحين مغلقين لازالت على عقولهم وأرواحهم غشاوة وكانوا لايريدون الخروج منها لأن الخروج كان كفرا ومروقا على الدين. ولقد قام مصلح من هنا اسمه «سيدى ليبيه» حاول أن يقنعهم أن تعلم العلوم واللغات الحديثة وتعلم العادات الحديثة هو من جوهر الإسلام ولكنهم جميعا صدوه وأسكتوه وظل خافت الصوت حتى جاء عرابى باشا ومنذ جاء لازمة «سيدى ليبيه» ووجدت آراء «سيدى ليبيه» الإرادة والشخصية التى استطاعت أن تضعها موضع التنفيذ .

ووضع الاثنان يدهما فى يد بعضهما البعض وولدت أكبر نبضة فى تاريخ مسلمى سيلان. بل هى ثورة نقلتهم من القرون الوسطى إلى العصر الحديث مباشرة .

وحينما تذهب إلى كولومبو ستزور هناك «الكلية الزاهرة» وسترى البناء الواسع الشاهق وسترى أبناء المسلمين يتلقون دروس الكيمياء والطبيعة والهندسة جنبا لجنب مع علوم دينهم وستقابل عزيز عميد الكلية ثمرة من ثمرات ثورة عرابى وسيدى ليبيه، هناك تحت شجرة جوز الهند ولابد أن تدعهم يقطفون لك إحدى ثمارها وتشرب ماءها لأن الذى زرع هذه الشجرة هو عرابى باشا بيده. وفى كل عام يقام الاحتفال بتخريج الطلبة

حولها .

وقد تسلم الخريجون الأول شهاداتهم من يد عرابى الذى كان يرأس حفلة التخرج كل عام طوال حياته فى الجزيرة ويوزع بيده الشهادات .

ولقد احتفلوا باليوبيل الذهبى لهذه الكلية منذ أعوام ووزعوا الكتاب الذى ألفه «عزيز» عن عرابى باشا راعى الكلية، وبعثوا إلى بنسخة منه ولقد فرحت بها كما لم أفرح بشىء قط وضممتها إلى صدرى وقبلتها. إن الوفاء هو أفضل صفات الإنسان وأعظم نعم هذه الحياة .

وابتسم مودليار عبد الرحمن واسهم مبتسما وقال:

- ولابد أن تزور كليه البنات وحينما ترى بناتنا المسلمات اذكر عرابى.. افتتحت أول مدرسة لتعليم البنات فى الجزيرة بجهاده هو والباشوات السبعة، ولقد رأى الناس سيدات مسلمات يصحبن أزواجهن للمنفى ويعشن معهم فى الشدة والبلاء ورأين نماذج عالية للثقافة والوطنية والدين. وارتفعت الصيحة بأن لابد من تعليم البنات ليكن مثل المصريات .

وأخذ عرابى يبشر بأن تعليم البنات واجب وأن الدين قد أوصى به. وقام عرابى وألف قصة طويلة عن المرأة والعلم والحب

والزواج وأهداها لفتيات الجزيرة. وكان أول كتاب نفذ إلى نفوس النساء وفتح عيونهن على العالم الجديد المغلق دونهن .

وكان موديلار عبد الرحمن يتحدث عن عرابى وكأنه نفض عن ظهره عبء القرن الذى عاشه ورجع صبيا كما كان يوم رأى عرابى وعاش قريبا منه مبهورا به. وكانت عيناه تضيقان ووجهه يشرق وملامحه تبتسم لذكرى بطل صباه.. ومضى يقول :

– ولقد أصبح الباشوات المصريون نماذج الحياة لمسلمى الجزيرة كلهم، وأصبحت حياة الأسر الكبيرة لدينا صورة من حياة أسر الباشوات، ولبس مسلمو الجزيرة الطربوش تشبها بهم ولبست السيدات الطرحه بدلا من البردة الكثيفة.. وتعلم الناس شرب القهوة وتقديمها ونسوا أننا أعظم زارعى وشاربى الشاى فى العالم .

كان عرابى باشا – رحمة الله عليه – زعيما حقا. وإننى أذكر هذا ولا أنساه.. دعى عرابى باشا يوما لحفلة ختان طفل صغير لرجل فقير وكان الباشا يلبى دعوة من يدعو ويذهب بنفس الإقبال سواء كانت الحفلة لعامل صغير من عمال المزارع أو كانت للسير توماس ليبتون ملك الجزيرة غير المتوج يومئذ وصديق عرابى باشا الحميم. وقد رأى عرابى باشا الحلاق يقوم

بالختان بطريقة آلت الطفل الصغير فلم يملك إلا أن يقوم ويعلم الحلاق درسا فى الختان، بل ودروسا فى الحلاقة واستعمال أدواتها ونظافة هذه الأدوات .

ووصلنا إلى ربوة عالية وأشار موديلار عبد الرحمن إلى بيت بين الأشجار والأزهار على هذه الربوة وقال: «هذا بيت عرابى باشا» .

وأصر موديلار عبد الرحمن على أن ينزل من على المحفة وعلى أن يصعد على قدميه إلى الربوة وصاح وقد أشرقت كل أساريره .

«لقد كنت أصعد هذه الربوة مرات كل يوم وأريد أن أصعدها الآن ولابد أن أصعد» :

وأحس بنا سكان المنزل فنزلوا جميعا لاستقبالنا ولتحية حكيم البلدة وتقدم إلينا شاب مهذب وقال إنه صاحب البيت وإنه طبيب.. والتفت إلى موديلار عبد الرحمن وقال :

ولقد احتفظنا كما احتفظ من سكنوا قبلنا بهذه الرخامة التى كتب عليها «عرابى هاوس» ولم نشأ أن نكتب اسمنا قط على المنزل بل تركناه وسيظل دائما اسمه .

ودخلنا إلى المنزل لنشرب فنجانا من الشاى، وأرانى الطبيب

كتابين فى مكتبته وصفهما بأنهما من أثمن ما يملك، كان أحدهما كتاب برودلى المحامى الذى دافع عن عرابى، والثانى كتاب بلنت صديق العرابيين ونصيرهم.. وقال لى الطبيب :

لم أكن أعرف شيئا عن عرابى إلا من سلفى فى سكنى هذا البيت، فقد قال لى ضاحكا وهو يغادره إن هذا بيت له تاريخ وهناك أرواح مقدسة تسكنه ولابد أن تعرف هذا.. وأقرضنى هذين الكتابين، وحينما قرأتهما أدركت شيئا غريبا كان يشغل بالى دائما كلما مررت ببورسعيد فى طريقى إلى أوروبا، وهو كيف بنى هذا الشعب - الذى يبدو ممزقا - الأهرام وكيف أقام أجمل معابد ومساجد العالم. وفهمت مصر من عرابى وأستطيع أن أقول لك إن عرابى هو أحسن نموذج شرقى أخرجه القرن التاسع عشر للزعيم الثورى .

وأشار الطبيب إلى صورة كبيرة بالزيت وقال: هذه صورة رسمتها زوجتى لعرابى وها نحن أولاء نضعها هنا فى مدخل بيتنا .

ولم يتركنا الطبيب إلا بعد أن أهدانى الصورة: «على الأقل لكى تستطيع زوجتى أن تستمتع برسم صورة أخرى» .

وتحرك الموكب ونفذنا إلى قلب المدينة ووقفنا عند باب كبير

كتب عليه مستشفى وصيدلية الشعب. وقال مودليار عبد الرحمن :

«كان يسكن هذا المنزل طلبة عصمت وكان يقول دائما: «إن وطنى حيث أكون نافعا للناس» وعاش هنا كواحد منا تماما وتعلم هو وأبناؤه لغة البلاد وأجادوها بل ورجع ابنه الأكبر إلى مصر.. وعاش حينا يذكر مراتع طفولته وصباه وكتب كتابا عن سيلان مازال أحسن ما كتب عن هذه الجزيرة. رحمة الله على طلبة عصمت لقد كان يقول: «إن الرجل هو الذى يترك أثرا حينما كان» .

وهاهو ذا قد ترك أثرا.. إن بيته دار علاج وتخفيف آلام تماما كما كان يختار لو خير.. عليه رحمة الله» .

وتحرك الركب.. وسرنا حتى قاع واد أخضر جميل فى أسفل قمة عالية ارتفع عليها بيت أحاطت به أشجار الأكاسيا ونخيل جوز الهند، وحديقة واسعة من الورد وأشار مودليار عبد الرحمن إلى بيت وقال: «ومن يسكن هذا البيت غير البارودى باشا؟ ومن يختاره سواه؟ لقد كان البارودى باشا من طينة فرسان القصص.. كانت الحياة بالنسبة له حلما عظيما إن لم يوجد فلابد أن يصنعه بالسيف أو بالقلم» .

«لقد كنت فى صباى شاعرا فارسا ولهذا كنت أحب وأعجب بالبارودى باشا.. وكان كثيرون هنا لا يفهمونه خاصة حينما يقطع أسابيع طويلة هو وشيخ يكتب وحيه اسمه الشيخ عبد الصمد.. ولقد كان البارودى باشا يعتزل الناس أحيانا حتى زملاءه ويهيم فى أرجاء الجزيرة الساحرة وغاباتها. ولكن شيئا آخر كان يسيطر على البارويى. كان يذكر مصر فى كل حين وفى كل لحظة وكانت مصر أمامه فى كل خطوة وفى كل لفتة وكانت نوبات الحنين إلى الوطن تشتد عليه كثيرا وكنت أذهب إليه فأجد فى عينيه آثار بكاء أو حزن أليم عميق .

وحينما أسأله يقول لى: «الحنين إلى الأوطان» ثم يقول: «إننى لا أخشى الحياة ولا الموت ولكننى أخاف أن أموت هنا وألا أدفن فى حفرة من أرض مصر» .

وتحرك الركب .

ووصلنا إلى أقصى المدينة ووقفت على باب بدا كأنه حديقة غناء حوت كل الأشجار الجميلة وقال موردليار عبد الرحمن : «لننه زيارتنا هنا.. كل شىء سوف ينتهى إلى هنا» .

هذه هى المقابر وتقاليدنا فى سيلان أن ندفن موتانا فى أجمل بقاع بلادنا وأن نحيطهم دائما بالأشجار والورود، وأن

نسقى قبورهم بعطر النرجس وأجمل النرجس عندنا هو ما ينمو بين المقابر سواء مقابر المسلمين أو البوذيين» .

ودخلنا إلى المقبرة الشاسعة الفسيحة ونادى موديار عبد الرحمن حارسا وكان عجوزا كهلا يضارعه فى صراع العمر والزمن، ولا أدرى ما الذى قاله له فقد أمسك بيدى وأخذ ينظر إلى طويلا ويردد: «عليه رحمة الله» ويتمتم بلغة الجزيرة وقال موديار: «لقد قلت له إنك من بلاد فهمى باشا وجئت لتزور قبره وهو يقول إن أحدا لم يزر قبره منذ خمسين عاما وقد ذبلت شجرة النرجس ولم يستطع أن يزرع غيرها» .

وأخذ الرجل يشد على يدى ويقول: «ألا تفكرون فيه.. ألا تفكرون فى زيارته» ورفع يده وطلب أن نقرأ جميعا الفاتحة على روحه .

وقرأنا الفاتحة. وأخذت أتأمل قبر «محمود فهمى باشا» فى مقبرة كاندى على بعد خمسة آلاف ميل من وطنه.. قبرا مغمورا ليس حوله شجرة نرجس ولا يسقية أحد عطرا ولا يزوره أحد منذ خمسين عاما .

وتصورت نهاية حياة محمود فهمى باشا الذى وضع استراتيجية معركة التل الكبير.. وهو يشرف على تنفيذها وهو

ينهزم ضحية للخيانة لا للعجز، وحسرته وهو يشهد الهزيمة ثم وهو يقع فى الأسر وينفى إلى هذا البلد السحيق حيث تدفن آخر بقاياه .

وقال موداليار عبد الرحمن: هذا لم يكن رجلا عاديا.. لقد كان إعصارا لا يهدأ ولا يكل. كان رأسه دائما مزدحما بالخطط والمشاريع وكان لكل معضلة فى رأسه حل.. وكانت الهندسة فى رأية عمارة الكون سواء فى مصر أو فى سيلان .

وحينما أفتى المهندسون الإنجليز بأن الترام لا يستطيع أن يسير فى سيلان وأن الكهرباء لا تتفق وطبيعة الأرض، قام محمود فهمى وفند آراءهم وأصر ومشى الترام فى سيلان .

وحينما طغت أمواج المحيط على شواطئ سيلان وقيل إن شيئا لا يستطيع أن يدفع أمواج المحيط أفتى محمود فهمى بأنه يستطيع أن يبنى الجسور وأن يدفع غائلة المحيط، وحينما قيل إن سيلان لا تستطيع أن تبنى خزانات أو سدودا أفتى محمود فهمى بأن بناء الخزانات والسدود ممكن .

وأصبح محمود فهمى معروفا فى سيلان كلها باسم «الإنجنير باشا» رجل المعجزات. وحتى اليوم لا يعرفه أحد إلا باسم «الإنجنير باشا» عليه رحمة الله.. عليه رحمة الله .

«ومات فهمى باشا هنا فى الأرض التى أحبها وعمر فيها ما استطاع عمارته وأراد مسلمو الجزيرة أن يقيموا له قبرا كبيرا ولكنه كان قد أوصى بأن يدفن كما تدفن عامة الناس» .

وقال موديار :

– أنت طبعا لم تر قبر عبد العال حلمى فى كولومبو.. هذه قصة أخرى.. أصر الناس على أن يقيموا له قبرا عاليا شامخا فى خير بقعة من مقبرة كولومبو وأقاموه، ولكنهم احترموا وصية محمود فهمى وإن كان ابنى قال لى منذ بضعة شهور إن مقبرة عبد العال حلمى فى كولومبو قد تهدمت وإن الطيور تعيش فى قبتها ولا أحد يرى النرجس المزروع حولها.. إن الزمن لا يحفل أحيانا بهيبة الذكريات» .

وانتهينا إلى بيت موديار عبد الرحمن لتناول الغذاء وأكمل لى القصة. «إن أحدا لا ينسى يوم غادر الباشوات الجزيرة عائدين إلى بلادهم بعد النفى الطويل .

لقد خرجت سيلان كلها أطفالا ونساء ورجالا. بوذيين وهندوكيين ومسلمين.. وظل ميناء كولومبو منذ الصباح يموج بالآلاف يغنون وينشدون ويبكون .

وحينما أبحرت السفينة اختلطت أصوات الموسيقى وأناشيد

الأطفال بنحيب الرجال والنساء وقضت سيلان كلها يوما حزينا أليما» .

كانت حياتهم هنا أسطورة وقد خلفوا وراءهم قبرين لاثنين من زملائهم وذكرى حية دائمة فى قلب وروح سيلان» .

وفى الليل جلسنا نتناقش أنا ومضيفتى بعد العشاء وقالت :

– ماذا نويت أن تفعل من أجل أجدادك ؟

– سأكتب عنهم.. ماذا أستطيع أن أفعل غير هذا ؟

– وأنت ماذا نويت أن تفعلى .

– سأتمم رسالتهم هنا.. إن الحلقة طويلة.. عرابى.. غاندى.. باندرانيكا ..

– من ؟

– باندرنايكا.. أعرف هذا الاسم جيدا. هذا هو رجل الشارع ورجل المستقبل فى سيلان، سالمون باندرنايكا إنه رجل نحيف ضئيل ألهب حتى تماثيل بوذا فى سيلان وهو الذى سيضعنا على خريطة العالم الثورية قريبا .

إن الاشتراكية هى النتيجة المنطقية.. والجنة هنا فى سيلان لابد وأن تكون اشتراكية وسنصنعها مع باندرنايكا .

نحن نصنع الحياة وأنت تكتب عنها .

لقـد كنت أريد أن كـتـب مـثلك ولكن بعـد أن فكرت رأيت أن أحاول أن أصنع الحياة مباشرة.. وسنلتقى دائما.. أليس كذلك؟

– طبـعـا سنلتقى.. أنت لا تعلمين أن الثورة التى أشعلها الباشوات السبعة لا تزال مشتعلة عندنا .

وستـرين اسم بلدى دائمـا على خـريطة العـالم الثـورية ولن يزاح من عليها.. وسيموت كثيرون.. ومن يدرى قد يدفن بعضهم مرة أخرى فى سيلان... من يدرى ؟!



◇ نساء فى ثورة عرابى



المستر برودلى هو المحامى الإنجليزى الذى تولى الدفاع عن عرابى بتكليف من صديقه المستر بلنت، قد ألف كتابا بعنوان «كيف دافعت عن عرابى» ويحوى فصلا عن الدور الذى قامت به المرأة المصرية فى ثورة عرابى .

ليس فى الشرق بلد يبدو فيه نفوذ المرأة واضحا جليا كما يبدو فى مصر، ولقد وجد عرابى فى الحريم وبين سيدات مصر تأييدا للقضية الوطنية ومبادئ عرابى منذ اللحظة الأولى. وقد ظللن ثابتات على حماسهن وتأييدهن حتى اللحظة الأخيرة أى حينما انطفأ الخيط الأخير من الأمل .

وقد جرف الحماس حتى أميرات الأسرة المالكة الخديوية – فيما عدا أم توفيق وزوجته – وكن لا يخفين تأييدهن القوى للثورة ولعرابى .

وحدث فى اليوم التالى لضرب الإسكندرية أن هبت كل فتيات مصر وبنات الأسر الكبيرة لجمع التبرعات وبذلها، وجمعن تبرعات كبيرة وألفن فرقة لتحضير الضمادات ولوازم الجرحى

لإرسالها للأطباء الذين كانوا يعملون فى الخطوط الأمامية فى معركة كفر الدوار ..

ولقد كان تأييد النساء المحجبات فى الحريم هو الضربة القاضية على حجج الذين كانوا ينكرون على حركة عرابى أنها ثورة شعبية شاملة، وحدث بعدما انتهت محاكمة عرابى ببضعة أيام وكنت قد بقيت فى القاهرة فى فندق شبرد أن جاءنى ذات يوم رسول خاص فى زيارة غامضة وقال لى إن معه رسالة لى من سيدة كبيرة المقام وسلمنى الرسالة ومعها مجموعة من الهدايا الثمينة الفاخرة لى للمستر نابيير مساعدى فى الدفاع .

وقد كان نص الخطاب :

إلى المستر برودلى المحامى ..

«بعد تحياتى واحترمى وشكرى لشخصك الشريف فإننى أنتهز هذه الفرصة لأعبر لك عن امتنان نساء وشعب مصر كله، ونحن والمصريون جميعا نشعر بالفرح وعرفان الجميل لما أديته من خدمات ولأنك دافعت عن قضية العدالة والإنسانية، ونحن المصريات والمصريين سنصلى وندعو الله أن يحقق لك السعادة والتوفيق كما ندعو الله أن يلطف بهذا البلد .

وإنك بدفاعك عن أبناء هذا البلد الذين ثاروا من أجله والذين

لم يريدوا له سوى الخير قد جعلتنا نعز انجلترا ونرى فيها أحرارًا يساعدوننا فى محنتنا وإنا لنشكر المستر بلنت شكرا عميقا على جميله نحونا وإن أنباء مافعله لتثلج أن نعبر لك عن شكرنا».

١٥ ديسمبر سنة ١٨٨٢ .

وكان الإمضاء «أنجه» وهذا كل ما عرفته عنها .

وبعد بضعة أيام تلقيت زيارة مماثلة ولكنها هذه المرة كانت من فتاة جميلة متحمسة جاءت وقالت لى إنها تريد أن تشرح لى حقيقة مشاعر نساء مصر نحو الأحداث الأخيرة وكانت تتدفق بحماس وهى تروى لى :

لقد كانت كل فتاة وسيدة فى مصر تعطف سرا ومن أول لحظة على عرابى.. لأننا أدركنا أنه لا يريد سوى خير مصر ولقد اعتقدنا حينا أن توفيق نفسه يؤيد عرابى ولهذا أحببناه، ولكن حينما وجدنا أنه يكيد له ويخون مصر كرهناه وكرهناه بشدة، ومن يومها حاول توفيق أن يستميل عطف سيدات وبنات الأسر عن طريق أمه وزوجته بلاجدوى.. بل ولقد كرهته الأميرات وذهبت إحدى الأميرات الكبيرات إليه وقالت له فى مواجهته رأيها بصراحة فيه وفى تصرفاته السياسية .

وبعدها بقليل رحل توفيق إلى الإسكندرية وسمعنا بعدئذ أنه

انحاز نهائيا للإنجليز وبدأت الاجتماعات النسائية فى الحريم وصممت كل المجتمعات على عدم الاعتراف إلا بعرابى كزعيم شعبى يدافع عن البلاد، لقد كنا جميعا نرى فى عرابى زعيما شعبيا سيتم على يديه الخلاص وكان حماسنا له لا يعرف حدودا وكنا جميعا نكتب له خطابات إعجاب ونبعث له بتلغرافات تهنئة وتشجيع بأسماء مستعارة ولقد كتبت له إحدانا مرة خطابا متحمسا «إلى منقذ مصر» تعرض عليه الزواج لتقف إلى جانبه وتؤيده ورد عليها عرابى شاكراً وطلب منها أن تؤدى واجبها الوطنى فى مكانها .

ولقد ساهمت كل سيدة وفتاة فى نفقات الحرب حسب مواردها وكنا نجمع التبرعات بانتظام، نشتغل بجد طوال اليوم فى إعداد ما يلزم الجنود من أدوية وأغطية وضمادات، وظللنا نعمل بحماس ونلهب الشعور مع عرابى وضد توفيق حتى كان ذات يوم إذ جاء عرابى إلى القاهرة وسرت إشاعة قوية بأنه قد جاء معه برأس الجنرال ويلسلى والأميرال سيمور.. وطغى علينا الفرح ولكن ما لبثنا أن عرفنا الحقيقة المرة وأن العكس هو ما حدث وأن عرابى قد منى بهزيمة ساحقة واستولى علينا ذهول وحزن أليم واستغرقنا فى بكاء مستمر حتى بلغت حالتنا مبلغ

اليأس الأليم .

وحينما عاد توفيق منتصرا مزهوا إلى القاهرة توقعنا أن يصب العذاب والغضب على نصيرات عرابى، وبالفعل ما إن وصل حتى أرسل إلى الفتاة التى كانت قد أرسلت خطابا إلى عرابى وأعلن أنه سيذيقها العذاب المر لولا أن تدخلت أمها وأعلنت بجرأة أنها هى التى كتبت الخطاب ووقعت عليه بخط ابنتها، وحينما خرجت الأم وابنتها من عند توفيق التقتا بالأغا الذى أبلغ الخديو توفيق بقصة الخطاب ووشى بهما إليه فأمسكت الأم بكرسى وضربته على رأسه وانهالت عليه ضربا وأخذت تجرى وراءه فى أرجاء السراى والدم ينزف منه تريد أن تفتك به نهائيا ..

وأمر توفيق بجمعنا كلنا بعد مادله جواسيسه علينا وكان أكثرنا يرتجف من الخوف وذهبنا.. وكان توفيق يجلس وإلى جواره أمه وما إن اكتمل عددنا حتى انهالت علينا أمه بأقذر وأقذع السباب وأعلنت لنا فى تشف أن بطلنا عرابى سيسلمه الإنجليز إلى الخديوى لكى يعدم ببطء على الخازوق. وقرأت علينا أمه قائمة بأسماء زعيمات حركتنا وقالت إنه قد تقرر إعدامهن وسرى فينا الرعب وظللنا خائفات بضعة أيام حتى تحققنا أنه لا

توفيق ولا أمه يستطيعان أن يحركا أصبعا بغير موافقة الإنجليز أسيادهما .

وحينما عرف أن حياة عرابى لن تمس وأنه سينفى فقط لبست أم توفيق الحداد وسرى الوجوم والحزن فى السراى وأخذنا نحن بدورنا نتشفى فيهم .

واختتمت الفتاة الجميلة المتحمسة حديثها معى قائلة :

«أحب أن أقرر لك كى تعلن للعالم كله أنه مادام توفيق يحكم مصر فلن يكون هناك سلام لا لكم ولا لنا ولا لمصر كلها» .

ولقد كان يمكن لتوفيق أن يتزعم الوطنيين وأن يكتسب ثقة الشعب المصرى ولكنه طرح هذه الفرصة وأخذ يناور ويداور حتى أصبح عبد بريطانيا.. ولقد أصبح توفيق أكره رجل على الشعب وليس له مستقبل وسيذكر اسمه فى التاريخ دائما باسم الرجل الذى جاء بالإنجليز إلى مصر .

ولقد قابلت توفيق بعدئذ وفى حديث طويل له قال لى: إنه كان يستطيع أن يعيش فى سعادة وفى سلام لولا شيئان هما أشد ما فى مصر خطرا عليه وهما: أقلام الصحفيين وألسنة السيدات .



◇الزغلوليات



إن المصريين مثل رمال الصحراء قد تستطيعين أن تسيرى عليهم، ولكن يوما ما يهبون كعواصف الرمال ويبتلعونك ...

فى عام ١٩٢٢ جاءت إلى مصر الصحفية الأمريكية جريس تومسون سيتون لترى نساء مصر، وكتبت كتابا صدر فى ذلك الحين ولم يقرأه أحد فى مصر.. سجلت فيه صفحة من كفاح نساء مصر أو الزغلوليات كما سمتهن .

* * *

قيل لى إنه من الصعب جدا أن أستطيع رؤيتها إن لم يكن من المستحيل. وكان من العبث طبعا أن أحاول الاستعانة بأحد من معارفى الإنجليز أو الأمريكيين، ولم أجد سوى أن أكتب لها من امرأة إلى امرأة وكمكافحة فى سبيل قضية المرأة الكبرى فى بلادى إلى مكافحة فى سبيل قضية الحرية فى بلادها. ولم أأتمن أحدا على الرسالة فذهبت بنفسى وسلمتها لبواب «بيت الأمة» .

وفى اليوم الثالث جاء الرد مهذبا فى لغة انجليزية بديعة يحدد لى موعدا لمقابلتها ..

وذهبت.. ولم أكد ألقى نظرة على ما حولى حتى دهشت، أن الشرقيات كما يصورهن خيالنا الغربى المريض قد انقرضن، والحوريات المضطجعات فى استرخاء يعرضن فتنهن على أرائك ناعمة من الحرير وحولهن الجوارى يعزفن العود والطنبور لم تعد توجد إلا فى كتب الأساطير .

واستقبلتنى خادم أنيقة قادتنى سيدتها حيث كانت تجلس وحولها عدد كبير من «أركان حربها» والمعجبات .

ووجدت «مدام زغلول» سيدة متوسطة الطول ذات شعر تخلله المشيب فى وقار وجمال وعينين عسليتين نفاذتين وأنف دقيق وشفتين رقيقتين وطراز مثقف مهذب من الجمال .

ومن الوهلة الأولى أحسست أننى أمام سيدة قوية الشخصية ذات كبرياء.. وذات رقة ووداعة أيضا وكان صوتها دائما هادئا لا يعلو ولا ينفعل، وكأنه يعبر عن روح انكشف لها الحجاب ورأت الحقيقة.. وصممت على أن تتبعها حيثما تقودها .

ولقد اعتقل زوجها «زغلول باشا» للمرة الثانية فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٢١ بعدما رفض أن يعتكف فى عزبته وشهدت صفية هانم اعتقاله وظلت هادئة ساكنة حتى غادر زوجها البيت.

وخيرت بين أن تصحب زوجها أو أن تبقى، وكان عليها أن

تحسم هذا السؤال الخطير.. ولكنها بعد تفكير عميق قررت أن تبقى وأن تتم الرسالة التى تركها زوجها. لأنه إذا كانت حاجة زوجها إليها شديدة فإن حاجة مصر أشد .

وكما قالت لي: إن سعدا سجين فى سيشل ولكننى هنا روحة الثانية وزوجته التى تصون مكانه .

ولقد كان ردها على دار المندوب السامى قاسيا تاريخيا فقد أمسكت بالتليفون وقالت للمتحدث حينما أخبرها أنها تستطيع اصطحاب زوجها :

«أخبر سعادة المندوب السامى أننى سأظل فى القاهرة وسأعمل كل ما فى وسعى لأتم عمل زوجى، وأنتم تستطيعون أن تنفوا جسم سعد ولكنكم لا تستطيعون أن تنفوا روحه؛ لأنها تعيش وستظل تعيش، وفى بيته، وأنا سأكون سعداحتى يعود، وهو سيعود لأن الشعب لن يسمح بغيابه ولن يمكنكم من إبعاده طويلا، وحتى لو مات سعد فسيأتى كثيرون غيره وسيتقدمون الصفوف وسأفعل كل ما أستطيع لإشعال روح الثورة فى سبيل استقلال مصر .

وأعدت صفية هانم واللجنة منشورا وزع فى كل أنحاء البلاد بعنوان «نداء حرم الرئيس» .

قالت فيه: «لئن كان سعد شيخا فثقوا أن هذا النفى لايهد من عزيمته.... إلا شيء واحد هو أن يعلم يوما أنكم اعتراكم الضعف ولو للحظة واحدة» .

وبدأت فى غيبة زعماء الوفد الكبار فى المنفى وزعماء الصف الثانى فى السجون صفحة كفاح مجيدة لسيدات مصر بزعامة صفية هانم زغلول .

وقد بدأ احتجاجهن يأخذ شكله العملى بتنظيم مقاطعة البضائع البريطانية، وانضم إلى السيدات عدد كبير من سيدات المرأة الجديدة وجمعية محمد على الأرستقراطيات للكفاح من أجل استقلال حقيقى للبلاد .

وقالت لى مدام زغلول: إنهن لم يغيرن ملابسهن ولم يعرفن النوم طوال الأسبوع الماضى وقد انتشرن فى شوارع القاهرة وأثرن فى البدء سخرية البعض، ولكن لم يمض أسبوع حتى كان التجار يستجيرون بهن وينفذون كل طلباتهن. ولقد نظمن لجانا فى المدن وفى القرى.. وعقدن اجتماعا فى القاهرة شهدته ألفا سيدة نظمن فيه مقاطعة البريطانيين والبضائع البريطانية حتى ضج البريطانيون.. وأفلس عدد كبير من متاجرهم .

* * *

وبدأت أتردد على بيت الأمة وأتعرف بالمصريات الجدد وكانت صفية هانم تقدمهن لى وتحدثنى عنهن، لأنهن كن يأبين الحديث عما يفعلنه وتحمر وجههن خجلا إذا أشاد بهن أحد .

وعرفت مدام بركات وكانت صفية هانم تسميها «أركان الحرب».. لأنها كما قالت لى «ذات مقدرة خارقة على العمل الشاق المتواصل وهى تسكب كل روحها ونشاطها وحماسها فى الكفاح لقضيتنا» .

وكانت مدام بركات شابة ذات عينين براقتين لامعتين ووجه مستدير وبشرة ناعمة سمراء وخدين بديعين، وحينما قابلتها لأول مرة كانت قادمة منفعلة من الخارج فقد رأت مصريين يشتريان «كرافتات» من محل انجليزى فاندفعت إليهما وعنفتهما حتى تركا البضاعة وأسرعا بالهرب خجلا.. وحينما استمعت إليها وهى تروى القصة أحسست أن روح جان دارك قوية متفجرة فى المصرية الجديدة .

ولقد التفتت إلى صفية هانم وقالت «إننا لم نعد نشترى شيئا مطلقا إلا ماهو مصرى وحتى هذه الفطائر نصنعها فى بيوتنا هنا لأننا لا نريد التعامل معهم» .

ودخلت مدام اللوزى ومدام يوسف أولا شقيقة صفية هانم

وهما سيدتان ممتلئتان كانتا تساعدان خالتهما كثيرا فى كفاحها وقد قبلتاها فى خديها ثم فى جبهتها وقدمت إليها مدام اللوزى باقة ورد.. وقالت لها.. «هذا من حديقتنا أرسله أبى إليك» .

وضحكت مدام زغلول والتفتت إلى قائلة :

«انظرى كم تقدمنا منذ عهد الحجاب.. إن رجلا يقدم لى أزهارا» .

وانتهزت الفرصة وسألتها :

«كيف تتصورين مستقبل المرأة المصرية؟» .

وقالت لى: رائع.. إننى نفسى لا أكاد أصدق التقدم والتطور الذى حدث ونحن نتقدم إلى الأمام بخطوات واسعة. زوجى رجل متحرر وهو يؤيد حقوق ومطالب المرأة... والحجاب هذا ليس من ديننا فى شىء ولابد من أن نطرحه ونتحرر منه نهائيا ربما فى بضع سنوات وربما فى بضعة أشهر .

وسألتها: وكيف ترين مستقبل مصر ؟

فقالت: سنكافح حتى تنال مصر حريتها وسنسير فى الطريق حتى النهاية .

قالتها بالفرنسية وبتصميم وعزم أكيد. ثم التفتت إلى مدام واصف بطرس غالى بتلك النظرة الحنون التى تجعل الجميع

يعبدن صفية هانم .

* * *

ويجمع صالون صفيه هانم كل النماذج من نساء مصر من كل الطبقات.. من الأميرات حتى الفلاحات البسيطات .

وهن يجلسن معا بلا تفرقة يحتسين القهوة أو الشاى بغير كلفة أو تفرقة.. ويناقشن ويبحثن معا وليس هناك مكان يمكن أن يرى فيه الإنسان حيوية مصر وثورية مصر والمرأة المصرية الجديدة مثل هذا الصالون .

ولقد ذهبت يوما فوجدت سيدة ريفية تجلس على الأرض متربعة والجميع يحيطونها بعطف واحترام، وكانت ترتدى ملابس الريفيات وتضع مجموعة مذهلة من الحلى الذهبية على صدرها وفى ذراعيها وحتى فى قدميها .

ولم تكن غريبة وسط الجو الأنيق المهذب المثقف المتحمس الذى يحيط بها والذى كان يكف عن الحديث بالفرنسية لكى يتحدث إليها، وكان اسمها «الست جبة» وقد جاءت إلى بيت الأمة تحمل مبلغا كبيرا من المال لتتبرع به لصفية هانم وللثورة، وكانت الست جبة تصحب معها سيدة أخرى ريفية لا تقل حمولتها من الذهب عنها، ولكنها كانت أكثر رشاقة وأناقة منها

وقد أجلستها صفية هانم إلى جوارها.. وجلست تحتسى القوة فى رشاقة لاتقل عن رشاقة من حولها، وأخذت أيضا تسألهن وتستفسر منهن عن أشياء كثيرة وهن يجبن بترحاب عن كل ما تريد .

وسألت جارتى.. فأجابتنى بانجليزية طلقة أدهشتنى: إن الجميع من نساء المدينة إلى نساء الريف يؤمن بأن سعد باشا هو الزعيم الوطنى المخلص الحقيقى للبلاد ويجب التضحية من أجله، والريف يؤمن به ويعتقد أنه بغير سعد باشا لن يكون هناك رخاء .

وأعجبت بحماس وبلاغة محدثتى الشابة وعرفت أنها شابة من الإسكندرية.. وتطرق الحديث إلى البريطانيين. فقالت:

إنهم أغبياء وهم لا يعرفون شيئا عنا وقلما يعرفون حياتنا الاجتماعية، ونحن لا نختلط بهم إطلاقا وهم مغرورون ومتكلفون حتى بينهم وبين أنفسهم.. ويدهشك أن تعلمى أنه حتى فيما بينهم وبين أنفسهم يسودهم النفاق الاجتماعى والتكلف. وزوجة الموظف البريطانى ذى الستين جنيها شهريا لا تختلط بزوجة الموظف ذى الأربعين جنيها.. ولقد سافرت إلى لندن عدة مرات وعرفت حقيقة هؤلاء الناس .

واشتركت معنا فى الحديث عايدة مرقص حنا ولم أستطع أن أستشف أن وراء هذه الفتاة الضاحكة المتفائلة قلبا مثقلا لأن عمها وخطيبها منفيان مع سعد باشا، وعرفتنى عايدة بأختها مارى وهما كريمتا مرقص حنا وعمهما سينوت بك حنا أحد أقطاب الحركة الوطنية الذى تعرفت بابنته كامبل وزوجته .

هؤلاء سيدات قبطيات - أى مسيحيات مصريات - وهن جميعا مجاهدات جهادا لا يهدأ فى سبيل الحركة الوطنية وأيضا فى سبيل الحركة.. وهن يتكلمن الإنجليزية بطلاقة وقد حدثتنى عن الحركة الوطنية وكيف أنها جرفت حتى الأجنبيات المتزوجات من مصريين .

ولم أصدق حتى التقيت بلويز ماجوريللى زوجة واصف بطرس غالى. وهى سيدة فرنسية نحيفة رقيقة ولكن ذات روح ثورية جياشة كالفراشة المشتعلة .

ولقد كانت لويز ماجوريللى متحمسة فى الدفاع عن الرجل المصرى وبددت لى الخرافات الشائعة بأن كل هم الرجل فى مصر إذا ما أثرى هو أن يزيد عدد زوجاته .

ولكن أغرب من صادفت كانت هيلدا فانوس، مواطنة أمريكية التقيت بها غارقة فى العمل وإعداد المنشورات والرسائل فى بيت الأمة .

وهيلدا من بلتيمور وقد التقت وهى فى الخامسة عشرة بالدكتور رياض فانوس الذى كان يدرس فى جامعة جون هوبكنز وأحبته وتزوجته رغم معارضة أسرتها كلها .

وقد وقفت هيلدا بصوتها الجهورى تقول لى: أخبريهم فى أمريكا عنا وعن هؤلاء النساء الرائعات اللاتى يردن إعادة مجد وحضارة بلادهن وإننى لسعيدة لأنى ألقيت بمصيرى معهن، وإننى لفخورة بأننى أستطيع أن أعمل معهن وأكافح بينهن لتحقيق آمالهن. وأخبريهم أيضا عن الرجال الأبطال الرائعين الذين يناضلون ويضحون لهدف واحد هو تحرير بلادهم من الجهل ومن الاستعمار، وصححى الفكرة السائدة فى أمريكا التى تقول إن المصريين برابرة فطريون لأننى أحيانا أخجل من بلادى وموقفها نحو مصر .

ولقد كان كل هؤلاء يحطن بصفية هانم وكانت تبدو بينهن زعيمة حقيقية تحمل هبة الزعامة العظمى وتستطيع أن تلهمهن وأن تقودهن وأن تكون لهن الأم والرائدة والقائدة.. وأن تجعل تضحياتهن الكبيرة المضطرة إلى المال والجهد تبدو سهلة محببة أمام هدفهن الأكبر وهو تحرير مصر.. لا من بريطانيا ولكن من كل القيود .

ولم تكن صفية هانم فى الحقيقة سوى أم لكل المصريين، ولهذا كانت الزعيمة الروحية للنساء والرجال أيضا فى غيبة زوجها .

وكانت الرئاسة الفعلية للجنة السيدات فى يد سيدة مصر الثانية العظيمة مدام هدى شعراوى .

وهى سيدة هادئة رصينة، وزعيمة وقائدة بكل معنى الكلمة. وهى تحمل فى وجهها وشخصيتها تلك القوة الصامتة المتدفقة التى تحسها أمام النيل نهر مصر العظيم.. ووراء مظهرها المهذب الشامخ يحس الإنسان أيضا أن هناك عقلا مرتبا وإرادة صلبة.. ولا أريد أن أتحدث عن جمالها لأن أية صورة لها لا تعطى فكرة عن أى جمال ساحر أخاذ تتمتع به وهى فى سن الأربعين .

ولقد جعلها جمالها وشخصيتها ووطنيتها ومواهبها وقدرتها على العمل الشاق رئيسة للجنة السيدات ورئيسة شرف المرأة الجديدة .

ولقد طفت بالدوائر النسائية فى انجلترا وأمريكا، ولكننى وجدت من الذكاء والحماس والوطنية والجمال والأناقة فى مصر وفى بيت الأمة أكثر مما وجدت فى أى مكان آخر من سيدات

وفتيات ومثقفات وفلاحات مصر الحديثة .

ولقد كنت أعتقد دائما أنه حينما تستقر المرأة للعمل مدفوعة بعاطفة وطنية أو بإلهام عميق أو حتى مجرد مقتنعة ببرنامج سياسى فإنها تغدو عنيدة حديدية الإرادة إلى حد لا يتصوره ولا يستطيعه الرجال .

ولم ألمس هذا مثلما لمسته بين «الزغلوليات» .

ولقد وجدت كلا منهن شعلة روحية ملتهبة من الثورة والتصميم على الكفاح. وهذا أكد لى أن المرأة قادرة على التضحيات العظمى وعلى الحياة وعلى الفداء من أجل فكرة .

ولكن كما قالت لى صفية هانم :

«إن المصريين مثل رمال الصحراء قد تستطيعين أن تسيرى عليهم.. ولكن يوما ما يهبون كعواصف الرمال ويبتلعونك» .

◇ لماذا لا يكون السد بطلاً ؟



كنت أسير فى موكب طويل حاشد من الرسميين المصريين والروس لزيارة مواقع السد فى العيد الثانى لبدء العمل فيه. قالوا إنه مستعمرة الفنيين الروس وعائلاتهم .

وبرز من بين الزوار الروس عملاق طويل كفلاحي الموجيك فى قصص تولستوى، وتدافعت إليه النساء والأطفال وأحاطوا به مهللين .

وتخلى العملاق عن الموكب ووقف بين النساء والأطفال يداعبهم ويداعبونه ويقهقهون جميعًا بضجيج وصخب يختلف عن جو الوقار الذى كان يسود الموكب .

وبرزت له امرأة روسية فى مثل ضخامته واستغرقت معه فى جدل حاد بدا وكأنه شجار ولكنه انتهى بضحكات عالية مجلجلة.

ووقفت وإلى جوارى «بيلاييف» مراسل برافدا يستمع ويضحك هو الآخر.. وقال :

– هل تعرف ماذا يقولون له ؟

– طبعا لا ..

– المرأة تقول له.. طريق السعادة ليس خريطة ولكن مادامت هناك سدود فهناك سعادة.. أليس كذلك ؟

– ولكن لماذا كانت تبدو وكأنها تمسك بخناقه ؟

– إنها تقول له كيف يمكن لمهندسة مثلى اشتركت فى بناء كل السدود السابقة أن تبقى فى البيت وتطبخ وتكنس وتنتظر زوجها.. وكانت تقترح عليه فى المرة القادمة أن يهديها ثوبا وحجابا مثل نساء أسوان لتلتف به .

وقال لى بيلاييف أيضا بعدما انفضت الحلقة وهرع الآخر ليلحق بالموكب .

– هذا «كومزين» هل تعرفه؟ إنه شىء عجيب.. زحمة مواهب.. وطريق السعادة الذى يتحدثون عنه هذا هو اسم قصة كتبها عن السدود.. وخلد فيها كل هؤلاء الناس الذين تراهم.. هذه المرأة بطلة من بطلات القصة.. وهؤلاء الذين تراهم هنا «شلة» معروفة فى روسيا وهم يعرفون بعضهم بعضا كأسرة.. وقد اشتركوا فى بناء خزانات وسدود ومحطات فى كل أرجاء روسيا وأصبحوا بعد كتاب كومزين معروفين لكل فرد فيها ومن أشهر الشخصيات الواقعية فى الأدب الروسى ..

– ألم يترجم.. هذا الكتاب ؟

– لم يترجم للأسف.. ولكن كومزين يكتب قصة أخرى عن السد العالى.. لقد رأيت عنده ذات مرة أرشيفا كبيرا يجمعه عن الأحداث والشخصيات هنا، وهو لا يريد أن يحضر إلى مصر ويتركها بغير أن تلهمه عملا أدبيا كبيرا .

وترقبت فرصة وسط الزحام والغبار وبين ضجيج الآلات والجرارات لكى أتعرف وأتحدث إليه.. وحينما سنحت وعرفنا بيلاييف قلت له :

– كنا نتحدث عن كتابك طريق السعادة .

وقهقه ضاحكا وأشار إلى الممشى الذى كنا نقف فيه :

– هذا هو طريق السعادة.. هأنتذا تسير فيه .

وقلت له: ما الذى تفضل أكثر.. الهندسة أم الأدب ؟

وقهقه: الاثنين.. يا عزيزى.. إن لى زوجتين. والاثنتان ممتعتان.. اسمع.. بعد أن صدر طريق السعادة دعتنى مجموعة من القراء لكى يناقشونى فى الكتاب.. كما نفعل فى روسيا ووقف أحدهم وقال لى ياكومزين.. أين البطل ؟.

وقلت له: «البطل هو مجموع الناس يا رفيق» .

ووقف قارئ آخر وقال: «البطل هو السد نفسه.. هذه قصة

طريقة. البطل فيها ليس كائنا حيا» .

وقلت لهذا الرجل: «لو بنيت سدا أو عشت مع سد لأدركت أنه كائن حى لا يقل حياة عنك يا رفيق» .

وأشار كومزين إلى سد أسوان القريب وقال :

– انظر إلى هذا.. كائن صامت مهيب ينفث الحياة فى كل شيء حوله.. بل وإلى آلاف الأميال أبعد منه.. يحول الصحارى الجرداء أو مساحات الثلوج إلى مدن ومصانع وحقول تعج بالحياة والسعادة.. أليس هذا كائنا حيا؟ وأية حياة ؟

واستطرد كومزين :

– كان أذكى تلك المجموعة امرأة قامت وطبعت قبلة على خدى وقالت: هذا أحد الكتب القليلة التى لم أنم قبل أن أفرغ من قراءتها، لقد جعلت من الهندسة أدبا ومن الأدب هندسة دقيقة ..

وقال بيلاييف ضاحكا :

– كم كان عمرها ؟

وقهقه كومزين واستدار ليذهب.. وقلت له :

– عرفت أنك تكتب قصة عن السد العالى ..

– طبعا.. ومن الذى يرى مصر ولا يحاول أن يكتب قصة ولكن لابد أن أذهب الآن.. إنهم ينادوننى.. طبعا سنلتقى كثيرا

مادمت معنا .

وذاب كومزين وسط الموكب الكبير .

والتقينا مرة أخرى فى وقفة من وقفات الزوار أمام إحدى المنشئات وأخذنى من يدى.. خارج الموكب وقال :

- تسألنى عن كتابى عن السد العالى؟ أنا أستغرب جدا كيف لا تكتبون شيئا يستحق عن السد العالى؟ اسمع.. مرة بعد اجتماع طويل حافل التفت الوزير إلى وقال لى :

- هل انتهت مطالبك التى لا تنتهى ؟

وضحكت.. وسنح بخاطرى أن أقول له: طلب واحد فقط، كتيبة كاملة من الأدباء والكتاب والفنانين يعيشون يوما بيوم ويشتركون معنا فى رفع الأحجار وفى حفر الأنفاق.. لابد أن تسجلوا ولادة السد والحياة التى تزدهر كل يوم حول السد، إننى لا أومن كثيرا بهؤلاء الصحفيين الذين يأتون يوما أو يومين ثم يكتبون عن السد.. إننى أريد كتابا حقيقيين يصورون الحياة الزاخرة الجديدة هنا، إن عندنا هنا أحسن وربما أيضا أسوا مافى مصر، وربما أيضا أسوأ مافى المصريين.. هنا مادة جديدة كاملة كل عناصر الدراما والملحمة وسط الغبار والضجيج وحر يوليو .

وقلت له :

– فضلت أن تقوم بالمهمة بنفسك .

وبدا كأن لم يسمع الرد واستطرد وهو يفكر :

– اسمع.. فى أول أيامى فى مصر، سألت مهندسا مصريا: من هو الكاتب الذى يمثل مصر؟. فلم يفهم ما أريد وقلت له: من هو الكاتب الذى أقرؤه فأفهم روح الشعب؟ ولم يفهم فقلت له: مثل جوركى فى روسيا أو ديكنز فى بريطانيا أو أو طاغور فى الهند مثلا !

وتعجبت.. لم يكن قد سمع عن أحد منهم ولم يكن حتى قد قرأ شيئا من أدب بلاده ..

وقلت فى نفسى.. هذا المهندس لا يمكن أن يصلح فى بناء هذا السد.. أنا عندى قاعدة ذهبية.. أنت لا تستطيع أن تبنى سدا لأناس قبل أن تحبهم ولكى تحبهم لابد أن تفهمهم وتنفذ إلى روحهم .

– أين نحن ؟..

جذبنى مرة أخرى من يدى وقال :

– تعال سأريك شيئا .

وسرنا معا حتى غرفة لصهر الحديد وكانت ورشة قديمة

بدائية فى آلاتها وعمالها و نادى أحد عمالها وسلم عليه بحرارة وقال بالعربية :

– ازيك.. مسعود .

ورد مسعود بكبرياء :

– عال.. وازيك أنت ياكومزين؟ وازى عيالك ؟

وقال لى كومزين: «مسعود هذا فى حوالى السبعين من عمره، وهو الذى أوحى لى بالقصة عن السد العالى.. لقد اشترك فى بناء معظم السدود والخزانات على نهر النيل فى مصر والسودان، وأنا لو كنت أعرف العربية وأحيانا كثيرة أتحسر لأننى لا أعرفها.. كنت قضيت أوقاتا طويلة مع حسن هذا وكتبت قصة كاملة عنه.. قصة العرق الذى سال وتصبب من ملايين المصريين وجيلا بعد جيل من أجل غيرهم وليستمتع به غيرهم» .

لقد قال مسعود هذا يوما لأحد الفنيين الروس الذين يتكلمون العربية :

«يا إيفان.. السد العالى أعاد لى شبابى وعندى الآن صحة تكسر الحديد.. ولا أطلب من الله إلا أن يجعل يوم موتى بعد تمام السد.. أراه وأموت» .

«مسعود هذا كتاب يمكن أن تفهم منه مصر كلها. وسأهدى

له قصتى عن السد العالى» .

ونظر كومزين حوله فوجد أننا تخلفنا بعيدا عن الموكب وأنه نسى نفسه فى الحديث فقال :

– لابد أن أسرع الآن لألحق بهم.. إن أسئلة الرؤساء الكبار فى جولة تفتيشية كثيرة وسخيفة لابد أن أتلقاها فى صدرى .

وسألنى :

– أين تقيم.. معنا فى الفندق.. أى غرفة.. إذن سأتصل بك.. هذا المساء .

– ربما يمكن أن نحصل منك على حديث كامل عن السد وعن الأدب وعن بناة السدود .

وقال :

– حديث صحفى وأسئلة وأجوبة.. ومشاكل بعدئذ لا.. نجلس ونتحدث حول فنجان شاى ثم تفعل بالكلام ما تشاء. تحت مسئوليتك.. سأتصل بك على أية حال .

وأسرع كومزين.. ليلحق بالموكب .

وفى صباح اليوم التالى وفى ساعة مبكرة جدا سمعت قرعا على باب الغرفة وقمت متثاقلا لأفتح وإذا بى وجها لوجه مع كومزين وبصحبته رجل آخر شاب طويل أسمر أنيق بادرنى

قائلا فى لغة عربية فصيحة وبلهجة مصرية سليمة - صباح الخير يا أستاذ.. آسفين لإزعاجك ولكن حاولنا الاتصال بك تليفونيا فلم نجد فى غرفتك تليفونا وقلنا نفاجئك لنشرب الشاى معًا.. إن وقت السيد كومزين كما تعرف مشغول جدا ولكنه حريص على الحديث إليك .

وقهقه كومزين وقال :

- قلنا: الصحفيون دائما يقلقون الناس.. فلماذا لايقلقهم الناس أحيانا .

والتفت إلى زميله وقال :

- السيد عبد الحميدوف مهندس من زملائنا.. ويجيد اللغة العربية.. أليس كذلك ؟

- يجيد.. كلمة متواضعة إنه يتكلمها مثلى !

- وهو أيضا متعمق فى الأدب العربى ويترجم مختارات منه.

- السيد عبد الحميدوف مترجم أم مهندس ؟

وأجاب الشاب الأنيق :

- أنا مهندس يا سيدى ولكننى أحببت اللغة العربية والأدب العربى خاصة كتاب القصة وترجمت بعض القصص .

– قرأت لمن ؟

– لكثيرين.. توفيق الحكيم ونجيب محفوظ ويحيى حقى وغيرهم.. وأنا أترجم مختارات منهم إلى اللغة الأذربيجانية وإلى اللغة الروسية. أنا أصلا من أذربيجان .

– وأين تعلمت اللغة العربية ؟

– بدأت فى موسكو لكن أجدتها هنا.. لى هنا عامان ونصف. ولكن الثقافة العربية والكتاب المصريين مشهورون عندنا فى أذربيجان مثل شهرتهم هنا.. طه حسين ومحمود تيمور يكادان يكونان معروفين عندنا كما هما فى مصر.. وقد تستغرب إذا عرفت أن من أشهر المغنيات فى أذربيجان.. السيدة أم كلثوم .

وقال كومزين :

– حتى تفرغا من الحديث عن أذربيجان سأذهب لأطلب الإفطار. نفطر هنا.. فى هذه الشرفة .

وعاد بعد قليل لنستأنف الحديث ..

قال كومزين :

– عبد الحميدوف كان معى فى أول زيارة لى للموقع أول يوم جئنا فيه إلى هنا.. فى أسوان.. قبل أن يوجد شىء من كل هذا الذى رأيته .

وقال عبد الحميدوف :

– كانت تجربة لا تنسى .

وقال كومزين :

– لقد جئنا جميعًا إلى مصر فرحين متحمسين .

تاريخ مصر وتراث مصر وحضارتها القديمة وثورتها الجديدة كلها كانت حلما .

وأنا أذكر قبل أن أحضر بأيام، ذهبت لأقابل خروشوف، وقال لى: «ياكومزين هذا المشروع يعنينى شخصيا إنه يمثل كل ما نمثل نحن فى حياة هذا العصر» .

وأشعل هذا حماسى.. ولكن حينما وصلنا إلى هنا، وحينما وقفت على موقع السد أحسست بخور فى العزيمة وتشاؤم شديد.. لقد رأيت مصر طوال الرحلة فى القطار شريطا ضيقا أخضر يزدحم فيه البشر ويتضورون جوعا.. ذكرتنى بجحيم دانتى.. ويومها قال لى حميدوف لقد جئنا إلى وادى الآلام والأحزان ياكومزين.. ووافقته طبعا من كل قلبى .

«بالنسبة لى كان من الصعب أن أصدق أن هذا الشعب المضعضع المهلهل هو الذى أقام كل هذه الحضارة؟ كان من الصعب أن أتصور أن هذه الوجوه الصفر الهزيلة وهذه

الأجسام النحيلة المنهكة هى مصر.. كان الريف المصرى صدمة كبيرة لى ولحميدوف أيضا.. أليس كذلك ؟

وقال حميدوف :

- بلاشك.. أنا قلت لك: الاستعمار يا كومزين.. الاستعمار.. ولكن حينما ترى المأساة على الطبيعة تجدها شيئا مختلفا وأشد فظاعة من كل ما تصورت .

مرة نشرت مجلة «الكروكديل» عندنا وهى مجلة فكاهية مقالا ساخرا عن بريطانيا قالت: لم يعرف التاريخ أقلية مثل هذه.. فعلت بأكثرية مثل هذه.. كل هذا!! والإشارة هنا إلى كلمة تشرشل المشهورة خلال الحرب .

وقال كومزين :

وحينما وصلنا إلى أسوان.. إلى مكان السد شعرت بوحشة وانقباض لا أنساهما أبدا.. أرض جرداء قاحلة وأناس يخيم عليهم خمول وكسل وعدم اكتراث بلا حدود !

يومها كان معنا ثالث هو إيفان.. مال على قائلا: «يبدو أننا سنبنى معجزة حقا» ثم مال على حميدوف وقال له: «هل يمكن أن تقع فى حب هذا المكان؟» وكان يرمى طبعا إلى قاعدتى الذهبية فى بناء السدود، لكى تبنى سدا يجب طبعا أن تكون

مهندسا ولكن هذا أسهل الأشياء وأبسطها، وأهم منها أن تتعلم كيف تحب الأرض التى ستبنى عليها والناس الذين ستبنى من أجلهم.. وطبعا أن تحب السد نفسه .

وكنت أعتقد أننى قد اخترعت هذه القاعدة أو على الأقل قد حددتها ولكن ذات يوم ذهبت إلى متحف الرى هنا.. وهو متحف للرى والأعمال الهندسية منذ مصر القديمة حتى الآن. وصدقنى إذا قلت لك إن هذه القاعدة لابد كانت مطبقة عند قدماء المصريين.. لقد أمسكت بأول الخيط فى هذا المتحف وأحسست أننى فى مدرسة أتعلم أشياء جديدة.. ونحن صنعنا الصواريخ والأقمار.. ولكن أحسست أننى أكتشف جديدا فى ذلك الفن السحرى.. فن ترويض الأنهار.. إن علاقة المصريين بالنيل علاقة حب.. وليست مجرد علاقة خبز، محب متيم يريد أن يعرف كل شىء عن حبيبته. قوتها، ضعفها ونزواتها.. إن كل نهر كبير فى العالم له شخصيته وذاتيته: النيل غير الفولجا.. غير الراين.. ولم أر شعبا يفهم نهره ويحب نهره مثل المصريين .

أحيانا أسمع حسن زكى يتحدث عن النيل فأتصور أنه يتحدث عن جده العجوز الطيب.. وأحيانا أراه واقفا يتأمله، فأحس أنهما يتكلمان همسا مع بعضهما البعض. وذات يوم قلت

له إننى أضع مشروع قصة عنه بعنوان «العجوز والنهر» فأخذ يضحك ويقول: لن تفهم السر .

على أية حال.. قبلنا التحدى.. وقلت لحميدوف وإيفان: «لابد أن نقبل التحدى.. ونبدأ من الصفر» .

وهأنتذا ترى السد .

وأطرف من هذا.. هأنتذا ترى حميدوف مفتونا بأدب مصر وثقافة مصر.. وإيفان لابد أن تراه هو الآخر. لقد جاءنى ذات يوم يقول: «لقد عرفت ياكومزين.. كيف بنى هؤلاء الناس كل هذه الحضارة، وأدركت لماذا يريدون أن يصعدوا إلى مستوى ماضيهم، لن تفهم شعبا إلا إذا بنيت سدا معهم» .

إن إيفان الآن حجة فى تاريخ مصر.. وبعد بحثا طويلا عن عصر محمد على !

ونظر كومزين إلى ساعته وهب واقفا وهو يقول :

– لقد استغرقنا الوقت، يجب أن أصحب نوفيكوف إلى أبو سمبل.. الباخرة ستقوم بعد قليل .

وودعته.. بعد أن قال لى :

قد نفاجئك غدا فى موعد أنسب ونكمل الحديث .

ولكنى لم أره.. سافرت إلى القاهرة.. وسافر هو إلى موسكو ثم نقل إلى منصب آخر.. يبنى سدا فى مكان آخر !

◇ تائه في باريس



قابلت أ . ن في بوليفار السان جرمين، وكانت مصادفة عجيبة أن يكون أول من ألتقي بهم ممن أعرفهم في باريس، لأنني كنت أود أن يكون أول من أقابل. ولم أكن قد رأيت أ. ن منذ خمسة عشر عامًا، منذ قرر أن يحمل متاعه وكل كتبه وأوراقه وأقلامه وهي لا تملأ حقيبة واحدة صغيرة وأن يرحل نهائيا إلى باريس .

وبهت واستولت عليه الدهشة.. لم يكن أ . ن كما عرفته وكما ذرعنا معًا حوارى القلعة وأزقتها، ولم يكن كما تصورته وما تصورت أن تفعل به خمسة عشر عاما، في رحاب المدينة التي جاءها لأنه «لا حياة ولا حرية خارجها» .

وكان يسير هادئا صامتا، بل وديعا مسكينا، وحينما التقينا وجها لوجه، بدا وكأن لم تثره المفاجأة كما تصورت أن تثيره وإن كان قد سلم على بشوق شديد وإنما – وهذا أشد ما أثار عجبي – باحترام وأدب جم.. لم يكن البوهيمي الثائر الصاخب على كل شيء والساخر بكل شيء وغير المكترث بأي شيء كما عرفته في

القاهرة.. ولم يكن الكاتب الناجح الذى تتهافت عليه دور النشر والذى تتهادى تحت قدميه الحسان، والذى يعيش حياة أصحاب الملايين كما سمعت عنه فى باريس.. ولكنه كان يسير وكأنه يحمل ثقلا ثقيلا عميقا ويسير به فى سكون واستسلام .

منذ خمسة عشر عاما تعرفت عليه عند رسام صديقى كان يرأس تحرير مجلة متواضعة وذهبت إليه أحمل قصة كتبتها لكى يرسمها وينشرها. ويدفع ثمنها وقال لى صديقى إن أ . ن كاتب قصصى يكتب بالفرنسية وإن هذه فرصة لكى أقرأ القصة أمامه.. واستمع إليها جيدا ولكن حينما انتهيت صاح بلا مقدمات «هذا هراء.. هذا هو الأدب الهزيل المريض. الذى لا يمكن أن تنتجوا غيره» وبغير مقدمات ولا تردد أخذ يصيح بأعلى صوته: «أنتم كسالى جبناء سطحيون ومعظمكم يعيش هاربا أو غريبا فى هذا المجتمع.. هذا المجتمع الملعون كان يجب أن ينجب جوجول وتشيخوف وديستويفسكى وجوركى معا مرة واحدة، ولكن كيف يمكن أن ينجبهم وأنتم تعيشون على سموم يبيعها لكم كتابكم الكبار.. كيف يمكن أن ينجب إذا كان كل كتابه مثل كل زعمائه قد خانوه» .

وارتبكت. وأرتج على لهذه الثورة العارمة المفاجئة ولكننى

أثرت الصمت وطويت القصة ووضعتها فى جيبى وأنا أتميز غيظا.. ولكنه مع هذا لم يستح ولم يكف وأخذ يصيح: «هذه ليست كتابة.. إننى أجن غيظا من كل شيء أقرؤه وأسمعه خصوصاً لهؤلاء المبتدئين.. إن الكاتب فى هذا المجتمع الملعون يجب ألا يحمل قلما، يجب أن يحمل فأسا. يجب أن يجد الشجاعة ليتحدى كل شيء وليصدم كل أحد.. لن تكتب إذا لم تجعل هذه البغال التى تركبنا تخجل من نفسها أو ترتعب من مصيرها، ولن تكتب إذا لم تجعل الأشلاء التى تزحف فى قرانا وحوارينا. وفى إنسانيتنا تقف. أو حتى تحاول أن تقف» .

واستمعت للدرس كاملا وهممت بالخروج لولا أنه أصر على أن أبقى وأن يدعونا للعشاء لأن معه مبلغا من النقود ولأنه مهما كان الأمر فهناك احتمال أن قد أكون كاتبا يوماً من الأيام «فإنه يستشعر بغريزته التى لا تخطئ أن هذا قد يحدث» .

وحينما انتهت الليلة كنا أصدقاء حميمين. وعرفت أنه يكتب قصصا بالفرنسية. وأن سر تعاسته الأكبر أنه يكتبها بالفرنسية. ولا يعرف العربية.. يفهمها ويقرؤها ولكنه لا يستطيع أن يكتب بها: «لو كنت أكتب مثلكم بالعربية. لو كنت أعرف كيف أكتب بالعربية. كنت أجعل كل مصرى هنا يخجل من نفسه. كنت

أجعل كل مصرى يستبشع حياته.. كنت أجعل الأرق والقلق والأشباح المخيفة تعذب كل مصرى؛ حتى لا ينام وحتى ليسأل نفسه كل يوم كيف أقف متفرجا من هذه المأساة» .

واتفقنا فى تلك الليلة على أن أترجم له بعض قصصه إلى العربية، وأن نقرأ معا بعض القصص الطويلة والقصيرة لمؤلفينا الكبار .

ودفع إلى ذات يوم عددا من قصصه وقرأتها. كانت شيئا فظيعا بشعا. يثير الفزع وأحيانا الغثيان. قصص تنزف دما وصديداً. وشخصيات مهزومة مستذلة مسحوقة.. انتهكها المجتمع وداس كل إنسانيتها وقذف بها كنفاية فى أسفل القاع. كانت كل قصصه مدمنين ومهربين. وبغايا وقوادين ورجالا ونساء سقطوا ولا يمكن أن يقوموا. أو رجالا ونساء يسيرون إلى السقوط ولا أحد يأبه لإنقاذهم ولا يمكن لأحد أن ينقذهم .

وكانت مكتوبة بمقدرة وبإخلاص، وبحب أيضا. ولكن كان من المستحيل أن تترجم. ومن المستحيل أن تنشر. كيف يمكن أن تترجم وأين يمكن أن تنشر؟. وأى صحفة أو مجلة أو دار نشر فى بلد يحكمها ملك وباشوات وخواجات يمكن أن تسمح بهذا أو تدع هذا يتداول؟.. وذهبت إليه وقلت له. قلت له أنه لا فائدة من

ترجمتها لأنه لا أمل فى نشرها. وثار وصخب كالعادة وصاح بأنه كان يعرف هذا وكان متأكدا تماما من هذا وأنه لهذا: «لن يزدهر أدب حقيقى فى مصر. ولن يقوم كتاب حقيقيون فى مصر ولن نرسم صورة كاملة لمصر. لن نكتشف أنفسنا ولن نكتشف حياتنا» ولكننى قلت له أيضا. إن مصر ليست هذه النماذج المنهارة المحطمة التى نسيها الله والتى أودعها فى منازل الموت المؤكد. إن هناك مصر أخرى إيجابية لا تموت ولا تنهزم ولا تعترف بالنهاية ولا بالهزيمة.. وكان هذا بداية ثورة. أنت تريد أن تعلمنى مصر أنت تريد أن تعلمنى الحياة.. مصر كلها فى نفسى. مصر كلها حية فى نفسى. تراث خمسة آلاف عام يكمن فى قلبى وعقلى وأنت مجرد خطيب واعظ دماجوجى. لا تعرف شيئا ولا تريد أن تواجه شيئا. أين مصر الإيجابية هذه؟.. كيف يمكن أن تعرف مصر الإيجابية هذه، قبل أن تنفذ إلى قاع البئر. قبل أن ترى كل مافى قاع البئر. قبل أن ترى الركام المكتوم الذى لايطلع عليه الفجر ولا يرى النهار أبدا؟. كيف يمكن أن تفهم هذه الطاحونة العمياء التى تسحق الإنسان كل يوم. إذا لم تستطع أن ترى ضحاياها. إذا لم تستطع أن ترى مدى وحشيتها. إن الذين أكتب عنهم هم الذين عاشوا كل المأساة.

عاشوها كاملة لأنهم لم يقاوموا. ولم يقاسوا. هؤلاء هم الذين أريد أن أضعهم فى كل واجهة وعند كل منعطف. وأعلقهم فى كل حائط وعلى كل جدار.. وأقول للذين قذفوا بهم إلى الهاوية. والذين أسدلوا ظلاما كثيفا عليهم. والذين أداروا أعينهم لكى لا تلتقى بهم. إنكم لا تستطيعون أن تهربوا من آثامكم ولا تستطيعون أن تخفوا جرائمكم .

وتكررت هذه المناقشات. وكانت تدور أحيانا بشكل عنيف بينه وبين أكثر أصدقائه. حتى جاء وقت لم يكن يحتمله أحد.. وكانت حياته سلسلة من الشجار تتخلله أحيانا لكمات وبصقات .

ثم رحل إلى فرنسا ذات يوم.... جاء وأعلن أنه قرر ألا يبقى فى هذا البلد وأنه سيرحل إلى باريس لأنه يريد أن يعيش كما يريد. ويريد أن يكتب كما يريد. ولأنه يريد أن يعيش حياته كاملة. وأن يكتب نفسه كاملة وأن يجد حوله من يفهمونه .

وأقمنا له حفل وداع. وشرب كثيرا. كثيرا جدا كما لم يتعود.. ووقف يخطب قائلا: «إن مصيبة الكاتب العبقرى مثلى أنه لا ينتمى لمجتمعه الراكد وأنه يسبق مجتمعه الراكد ولهذا أرحل إلى مجتمع متمدن. إن المجتمع المتمدن هو الذى ترى فيه امرأة جميلة مغرية فتذهب إليها قائلا: لماذا لا تقضين الليلة

معى؟ إننى أحق رجل بك لأننى فنان موهوب أستطيع أن أفهمك وأن أتذوقك.. والمجتمع المتمدين هو الذى ترى فيه رأسماليا. مكرشا بغيضا. فتذهب إليه وتقول. إنك خنزير وضيع تملأ الحياة حقداً وكرها وجشعا. ولابد انتقاما للحق وللجمال. أن أصفعك. وتهوى بصفعة على قفاه.. إننى راحل أيها الأصدقاء.. وستسمعون الكثير عن صفعاتى وعن عشيقاتى» وصفقنا للخطيب المفوه. وودعناه .

وسافر ولم يكتب لأحد مطلقا وانقطعت أخباره وتفرق أصدقاء وزملاء هذا العهد .

ونسوه وسط زحمة الحياة ومشاكل الحياة. ومنذ بضعة أعوام برزت أخباره فجأة ثم تتابعت متلاحقة. قصصه وكتبه تتسابق عليها دور النشر الكبرى فى فرنسا وتترجمها دور النشر الأوروبية والأمريكية وآلاف الجنيهات تنهمر عليه وحسان باريس تتهاوى تحت قدميه. ممثلة سينما معروفة تلاحقة وتذوب هوى فى غرامه.. وحياة ترف وبذخ فى قلب باريس وفى عواصم وملاهى أوروبا مثل أصحاب الملايين.. واشتريت قصصه وقرأتها. كانت أعمالا تستحق. كانت تساوى كل الضجة التى أثيرت حولها وكل الثمن الذى قبضه، وقررت يوما أن أترجم قصة له.. وكنت أحس

خلال كتاباته أنه قد حقق ذاته كاملة وأنه ليس للكاتب ولا يمكن أن تكون له متعة أكثر من تحقيق نفسه فى كتبه وفى أبطال قصصه.. وبدأت فعلا الترجمة ولكن نسيتها فى غمرة واجبات وأحداث كثيرة، وذات يوم فى العام الماضى وجدت ترجمة انجليزية لآخر قصة كتبها واشتريتها وقرأتها وشعرت بألم كبير وبحسرة أكبر.. شخصيات هزيلة وألوان باهتة وأحداث مفتعلة وكاتب جفت ينابيع إلهامه ولا يجد شيئا يقوله ويعتصر اعتصارا ذخيرته القديمة. تراث الخمسة آلاف عام التى تعيش فى لا شعوره قد استهلك وفرغ. ومصر التى يكتب عنها لم تعد توجد إلا فى خياله. وأبطالها الذين نسيهم الله قد وقفوا وسبقوا وحطموا أسوار دور الموت المؤكد. لم يكن فى أبطاله ولا فى كتابه الصدق والعمق الذى كان فى كتبه السابقة.. بل كان يبدو وكأنه يكتب عن عالم مفقود لن يوجد أبدا وعن أناس اخترعهم ولا يمكن أن يعيشوا على هذه الأرض. ولم أكتب له طبعا.. ونسيت كل شىء حتى التقينا فى السان جرمان دى بريه وقال: «هذه هى قهوة الفلور.. كانت قهوة الوجوديين أيام مجد الوجودية والوجوديين. كان سارتر يجلس عليها وحوله تلاميذه وكان يبعث الحياة والحرارة فى باريس وفى أوروبا كلها.. ولكن

ابتذل الباريسيون والأجانب الوجودية وأصبحت تسلية السياح الأمريكيين. وأصبح جان بول سارتر وتلاميذه مثل «برج إيفل» أحد غرائب باريس وطرائف باريس ولهذا رحل. وهأنتذا ترى.. هذه هي جوليت جريكو إحدى اكتشافات سارتر ومغنية الوجوديين، إنها تلبس ثوبا من عند كريستيان ديور وتكسب الملايين من هوليود وقد خلعت القميص الأسود والبنطلون الأسود وصففت شعرها المتهدل ولم ترض بعشيق أقل من داريل زانوك ملك السينما الأمريكية الذى يجلس كالعملاق المطيع جوارها .

وهذه قهوة الديماجو. لقد كانت فيما مضى قهوة الكتاب والفنانين والشعراء ولكن أصبحت الآن مقهى الأدعياء. كل هؤلاء الذين تراهم يتصورون أو يريدون أن يتصنور الناس أنهم أدباء وشعراء. باريس أجدبت وفرغت ومنذ الحرب العالمية الثانية لم تنجب سوى جان بول سارتر وقد قال كل ماليده ولهذا يعمل بالسياسة .

وتطلعت إليه مستغربا: باريس أجدبت ؟

– نعم أجدبت لماذا تستغرب هذا؟.. إن الأقلية من الكتاب الحقيقيين إما صامتون لا يتكلمون وإما يعملون فى الإذاعة

والتليفزيون ليكسبوا خبزهم.. وإما يهرعون إلى منازلهم لأنهم يخافون من زوجاتهم .

وسار إلى بار صغير فى شارع خلفى من شوارع السان جرمان وقال لى: هذا البار الصغير هو الحدث المثير فى حياة باريس. إن المقاهى والبارات هنا مثل الفلسفات والاتجاهات مجرد نزوات تثور أحيانا. وتزدهر حتى يفتح مطعم جديد أو بار جديد أو مقهى جديد.. وتظل الحلقة مفرغة .

ودهشت حينما جلسنا لأنه لم يطلب زجاجة من الخمر ولم يتجرعها بشراهة كما يفعل، وإنما طلب كأسا من الفرموت وأخذ يحتسيه بهدوء .

وسألت: وأنت ماذا تفعل؟ وقال: أنا.. أنا أعيش فى الفراغ. وأنا أعيش فى الفراغ المطلق. وليس فى رأسى شىء وليس فى قلبى شىء ولا أفكر إلا فى شىء واحـــد. أريد أن أرجع إلى مصر.. أريد أن أعود للقاهرة مرة ثانية.. إننى أنتمى إلى هناك ولا أنتمى إلى هنا. أريد أن أرجع وأن أتعلم العربية وأن أكتب بالعربية وأن أكتشف الحياة الجديدة والنماذج الجديدة .

أريد أن أعود إلى القلعة وإلى بيت الفنانين وأن أذرع شارع محمد على من مسجد السلطان حسن حتى العتبة الخضراء .

وسكت بعض الوقت ثم قال :

أليس غريبا أن أحس.. أنا الذى عشت فى باريس كما أحس الآن بالصقيع. أحيانا أقضى ليالى عصيبة وأرى أحلاما مزعجة وأظل مؤرقا طول الليل ومصمما على أننى سأجرى فى الصباح وألحق بأول طائرة ذاهبة إلى القاهرة، وأننى حينما أصل سأذهب إلى النيل وأظل أشرب ماءه العكر وأشترى قدرة من الفول وكومة من الطعمية وأظل آكل بشراهة.. حتى أشبع من الجوع .

خمسة عشر عاما.. آه.. هل تذكر على صاحب المسمط الذى كان يكشف لنا الحلة. ويقول: «شموا البواخ ده يمرى عليكم زى اللحمة تمام» إننى أدفع نصف عمرى لكى أشم بواخ المسمط عند على .

– وزوجتك.. أين زوجتك ؟

– زوجتى طلقتها. هل تدرى لماذا طلقتها؟ قالت لى ذات يوم: لماذا لا تصبح فرنسيا.. إننى سأساعدك.. وهيئ لها أنها تريد أن تمن على وتتفضل بأنها ستساعدنى بأن أكون فرنسيا.. وأمسكت بجواز سفرى المصرى وأحسست أن خمسة آلاف عام من التراث تشدنى إلى هذا الجواز ولا يمكن أن أتخلص منه. إن

مصر عالقة فى روحى وفى نفسى بحبال عميقة طويلة طول التاريخ.. لقد كنت أذهب كل عام لأجد الجواز وأقيم بين نفسى حفلة ذات طقوس وتراتيل. هل تذكر «فكيهة» طبعا لن تراها أبدا.. إننى اكتشفت أن المرأة الوحيدة التى أحببتها وأحبتنى كانت «فكيهة» التى لم تقرأ حرفا واحدا لى والتى لم أعرف تماما ماذا يدور فى رأسها عنى وماذا تتصور عنى.. أى دفء وصدق وعهر. لماذا تضحك؟ إنك مازالت مراهقا خجولا كما عرفتك.. هل هناك أجمل من الفجور الصادق؟ ما رأيك. لماذا لا تتكلم ؟

وقلت له: أليس عجيبا أن تكون أول شخص ألتقى به فى باريس. وأن تكون أنت الذى كنت أبحث عنه. إن ما قلته الآن هو ما أريد أن أقول لك.. كنت أريد أن أكتبه لك بعد أن قرأت كتابك الأخير وبعد أن أعطيته لـ «....» ليقرأه.. وكان رأيه مثل رأيى تماما. لقد انفصلت عن جذورك وانتزعت نفسك عن تراثك وفرغت ذخيرتك وإن لم ترجع فلابد أن تبحث عن عمل آخر غير الكتابة. إن حياة جديدة قد تدفقت فى عروق مصر ونفذ خيط من النور إلى قاع البئر وتذكر الله «محاسيبك» وإن لم يمنحهم الحياة إلا أنه منحهم الأمل .

والتقينا عدة مرات وفى كل مرة كان يقول لى إنه يعد نفسه

للرحلة.. الرحلة الطويلة. عائد .

وقبل أن أغادر باريس ذهبت إليه وقلت: متى ننتظرك ؟

وقال لى: لا أظن. لا أظن أننى سأعود. إن باريس تستبد بى مثلما تستبد بى القاهرة. إننى أريد إرادة هرقل لكى تنتزعنى من هنا وتقذف بى عبر البحر إلى الشاطئ الآخر. ربما كنت كما وصفنى «س» لست مصريا أصيلا.. لست ابنا حقيقيا لمصر وربما كنت حقيقة «ليفانيني» أعيش فى عالمين مختلفين ولا أنتمى إليهما .

وودعته للمرة الأخيرة. لم يعد له خلاص تماما كأبطاله !





◇ ليلة فى روما



كانت أحسن وصية أوصانى بها وهو يودعنى فى مطار «أورلى» بباريس :

– حينما تصل إلى روما اسأل عن مقهى «الدونيى» فى الفيافينتو وما عليك إلا أن تجلس هناك وتنتظر. وستمر إيطاليا كلها وربما العالم أيضا أمامك.. كل من تريد أن تقابلهم من جينا لولو بريجيدا حتى بالميروتولياتى. وربما مر قداسة البابا أيضا .

وابتسم صديقى الذى كان يعرف كل قصتى كاملة مع باريس وقال :

– وفى روما ستغسل كل قرف باريس. تأكد.. كل ما فاتك هنا ستعوضه مضروبا فى عشرة !

وحينما وصلت إلى روما واكتشفت مقهى دونيى فى شارع الفيافينتو تأكدت تماما من صدق صاحبى الفنان وأرسلت مائة قبلة فى الهواء. وكانت روما آخر محطة لى فى الطريق إلى القاهرة وكنت قد صممت على البقاء أسبوعا فيها أنفق آخر ما

تبقى معى وأقضى الوقت كله بلا سياسة ولا دراسة ولا كتابة.. فقط فن ميشيل أنجلو حتى فيتوريو دى سيكا .

وحينما وضعت حقائبى فى الفندق. سألت فورا عن الفيافينتو ومقهى دونييى وذرعت الشارع مرة.. أحسست أننى أستطيع أن أكتفى بهذا الشارع فقط وأنى أستطيع أن أقطعه وأذرعه طوال الأسبوع بلا ضيق أو ملل. وتصورت أننى أستطيع أن أقضى كل أسبوع أستعرض فقط واجهات المحلات وأتنقل بين المقاهى. واكتشفت شيئا جديدا ومريحا. كانت كل واجهة سواء لمحل بقالة أو ربطات عنق أو أحذية كانت معرض فن كاملا. تتأمله ساعة بعد ساعة.. وتتخيل كيف يمكن أن تكون الحياة جميلة وأنيقة فى كل شىء وأى شىء .

وحينما استرخيت على مقعد مريح فى مقهى دونيى أحسست أننى لا أدرك مدى الإرهاق الذى تتحمله فى باريس ومدى حاجتى إلى راحة طويلة لأغسل آثار هذه المدينة البغيضة .

وقد كرهت باريس كما لم يكرهها أحد. بحرارة وعنف وحنق لم تبرد حدته. ويوم غادرتها كنت أستعجل كل الإجراءات فى المطار.. أستعجل لحظات الخروج وأحس بالراحة للخلاص ولا أنوى مطلقا أن أرجع إليها. ولم يكن فى نيتى مطلقا أن أكره

باريس. ذهبت متفتحا موضوعيا وفى نفسى كل ما قرأته وما سمعته. وفى أول يوم وقفت فى الشانزليزيه.. وقلت: «هذه هى باريس». وتذكرت أحد أستاذتنا وهو يزأر: «عشرة أيام فى باريس.. عشرة أيام فى باريس.. يلزمك عشرات السنوات على الأقل قبل أن تكشف لك باريس صدرها. قبل أن تغوص فى ينابيع لا تنتهى من الفن والفتنة.. فن وفتنة فى كل شىء.. فى أحجار الرصيف وفى ورق الشجر وفى كل قطرة تجرى من مياه السين» .

ومرت بخاطرى باريس توفيق الحكيم: حيث يقف «محسن» تحت تمثال ألفريد دى موسيه «يقرأ والمطر يتساقط». «لا شىء يجعلنا عظماء مثل أدب عظيم. ويسير إلى الأوبرا ليقطع تذكرة فى أعلى التياترو. ويغازل بائعة التذاكر ويحصل منها على موعد» .

ثم يقضى الليل يناقش مصير العالم مع روسى عجوز عركه الدهر ..

ومرت بعدها باريس الصاوى: حسان بلا أول ولا آخر ينظرن إليك من طرف أعينهن ويبتسمن فتبتسم أنت أيضا وتقول:

«هل تسمحين لى أن أشاطرك المائدة؟» .

– تفضل.. من أين أتيت ؟

– من مصر ..

– آه.. مصر.. بلد النيل والأهرام والسحر الخالد.. لقد تكهنت بهذا من جاذبيك وسمرة بشرتك .

ثم.. ليلة عاصفة بين مانمارتر ومونبارتاس. وعوالم سحرية غامضة من نفحات الفردوس على الأرض .

ومرت باريس زكى مبارك. وطه حسين. حتى رفاعة رافع الطهطاوى. بوهيمية وحب وعلم وعمق. وصراع عقلى وفكرى وانصهار للنفس والروح واكتشاف للحق والخير والجمال. ونفاذ إلى سر الحياة وسر الكون من أجمل وأقصر باب .

وقلت لنفسى: لا يمكن أن يكون هؤلاء الأساتذة الكبار قد زيفوا باريس أو اخترعوا باريس أو باعوا إلينا وهما اسمه باريس. لابد أن هناك شيئا لا أستطيع أن أكتشفه بعد يوم أو يومين. وتذكرت حكمة واحد علمنا سماع الموسيقى المشهورة: «لن تحب أول سيمفونية سمعتها لبيتهوفن. هل أحببت أول رواية قرأتها لشكسبير؟ هذا تراث آخر غير تراثنا. ولن نحسه أو نعيشه إلا بالمعاناة» .

وظللت أعانى فى باريس ولكننى يوم غادرتها كنت أكرهها..

لم أكره مدينة مثلها. «باريس مثل الراقصة مستنجيت تقضى أيامها فى النظر إلى صور سيقانها وصور عشاقها.. وماضيها الزاخر.. الذى ذهب» .

ولقد جلست فى الطائرة. أحاول أن أخلص نفسى من هذا الكره.. وأسأل نفسى لماذا حدث ولماذا استبد بنفسى أحيانا إلى هذا الحد ؟

وتذكرت أول حادث.. تناولنا العشاء فى مطعم صغير أنا وصديق مصرى وآخر جزائرى.. كان أول من عرفت من الجزائريين فى باريس وكان مختلفا كثيرا عن الجزائريين الذين عرفتهم.. لم يكن يضطرم بالثقة والشجاعة والاستعداد لأى مصير، ولكنه كان رقيقا حزينا حزنا بالغا.. يبدو وكأنه يعيش تحت وطأة مأساة كبرى يحمل همها وحده ولكنه كان يتقد ذكاء وحماسة .

وظل ثلاث ساعات على العشاء يشرح لنا القضية. ونحن نستمع إليه كتلاميذ لم نعرف شيئا عنها من قبل.. وحينما انتهينا خرجنا لنتسكع قليلا فى (السان جرمان).. ولم يكن الوقت متأخرا بل قبل منتصف الليل.. ووجدنا سيارات البوليس تقف فى أماكن متفرقة من الشارع والعساكر ينتشرون

جماعات فى أنحاء الميدان. وجاءنا أحدهم وقال: «الأوراق الشخصية من فضلكم».. ورأيت وجه صديقنا يمتقع. وكل مافيه يضطرب ويهتز ويحاول جاهدا أن يخفى هذا. ونظر العسكرى فى أوراقى وأوراق زميلى وحينما أخرج الجزائرى أوراقه نظر إليه من رأسه إلى قدمه وأشار إليه بأصبعه إلى سيارة سوداء من سيارات «البوكس» كانت واقفة على الناصية. وأشار إلينا بأصبعه أيضا أن نمضى فى طريقنا .

وأذهلتنى المفاجأة. وأحسست بهوان ما بعده هوان وحقد ليس بعده حقد وأنا أنظر إليه وهو يسير إلى السيارة البوكس ونحن نقف عجزة لانستطيع شيئا. وتصورت أن ألكم العسكرى فى وجهه أو أن أبصق فى وجه الضابط الواقف وراءه. أو أن أصرخ وأقول: «أهذه هى الحرية؟». وأحسست بغصة كبرى وأنا أتبعه بنظراتى ولكن صديقى قال لى :

«لا تقم بأية حركة وإلا أخذونا معه.. إنهم يتربصون لأى مصرى خاصة. وعلى كل. فهذا روتين بالنسبة للجزائريين.. وبعد ثلاثة أيام أو أربعة سيطلقون سراحه». وحدث هذا على بعد أمتار من تمثال دانتون .

وتذكرت «س» كان شابا جليلا فاضلا من الصحراء

الجزائرية.. يدرس الفقه الإسلامى فى معهد الدراسات الشرقية فى باريس ولكن الفقة الإسلامى كان أحد علوم اختصاصاته. فقد كانت إحاطته بالثقافة الحديثة والثقافة الفرنسية تضارع تضلعه وتعمقه فى التراث القديم وتضارع وعيه السياسى وحماسته الثورية. وكان يقول لى دائما: «إن الثورة الثقافية فى الجزائر تسير جنبا إلى جنب مع الثورة السياسية والثورة الاجتماعية وسيكون عبئنا نحن مضاعفا.. لأننا سنبدأ من نقطة بعيدة المدى». وكنا نقضى ساعات طويلة فى مقاهى سان جرمان فى جدل يبدأ أحيانا من امرئ القيس وينتهى إلى جان بول سارتر ومن أبى ذر الغفارى حتى كارل ماركس .

وحينما جاء «رمضان» أخذنا نلتقى يوميا قبل موعد الإفطار وكنا صائمين مع القلة المسلمة الصائمة فى باريس، ونذهب معا إلى مطعم طلبة شمال إفريقيا وقد نستغرق فى الجدل حتى «السحور» .

وكان «س» حريصا على مواعيده حرصا دقيقا، لا يمكن أن يتأخر دقيقة أو يتقدم دقيقة وحينما يكون الموعد فى الساعة السادسة لابد أن تضبط عقارب الساعة عليه.. وذات يوم ذهبت كما تعودنا أن نلتقى.. فلم أجده ولم يحضر وفات موعد الإفطار

ولم يظهر له أثر. ومر أسبوع كامل عاد بعده من «الروتين» وقال إنه قضى الأسبوع فى غرفة مظلمة معتمة وعلى الأسفلت ليس بها سوى بطانية واحدة.. وإنهم استجوبوه ضمن ما استجوبوه «من المصرى الذى يلازمة أوقاتا كثيرة؟» وكان يضحك ويبتسم ويقول لى. «هذه سخافات. نحن قهرناهم. وهم يعرفون أننا قهرناهم» .

ولقد شعرت باشمئزاز ليس بعده اشمئزاز بعد قصة «س» هذا ولم يفلح فى إزاحته من نفسى أنه نفسه أخذ يقول لى:

«لا تكره فرنسا ولا تكره فرنسا ولا تكره هذا الشعب. إنه مسكين.. شعب تائه ضائع يتقاذفه مغامرون سواء من اليمين أو من اليسار» .

وتذكرت أننى ذهبت بعد وصولى إلى باريس ببضعة أيام إلى صحفى فرنسى كبير عرفته فى القاهرة حيث اشتغل زمنا طويلا مراسلا، وكتب كثيرا عنها ويعمل أخصائيا فى الشئون العربية وشئون شمال أفريقيا فى جريدة «الموند» عميدة الصحف الفرنسية. وقلت له: «أريد فى عشرة أيام أن أفهم الموقف فى فرنسا».. وهز رأسه قائلا: «الموقف فى فرنسا؟.. إننى أريد أحدا يفهمنى إياه أولا» .

وقـالت لى زوجـتـه ضـاحكة.. «ابحث فى باريس كلهـا.. إذا وجدت واحدا يفهم الموقف فى فرنسا.. فنرجو أن تدلنا بسرعة على عنوانه» .

وعشت شـهرا مرهقا. ما أقتنع به فى الصباح أنقضه فى المساء. وما أكتبه فى المساء أمزقه فى الصباح. وأجرى من هنا إلى هناك لأقابل أحد الطلاب الشيـوعـيين أو الاشتراكيين أو الراديكاليين أو «الديجوليين» وأشـترى حزمة من الجرائد. كل جريدة منها عالم مختلف وفرنسا مختلفة وأغلق الغرفة وأظل أحل ألغازها. أو أشد الحزام يوما لكى أشترى كتابا سال لعابى فى كل مرة رأيته فيها فى واجهة المكتبة. وكان الحزام مشدودا تماما منذ البداية وقد دلنى صديق على مطعم يقدم السـجق والبيض والبطاطس المقلى فقط. وخفف عنى الوطأة بأن قال لى إن المطعم الذى يجاور هذا المطعم كان يتناول فولتير فيه طعامه ويكتب مقالاته !

وذات يوم ضقت ذرعا بهذا الطوق الحديدى الذى لم أتعوده أبدا ومللت الخروج من أقبية المترو.. أو الركوب فى الأوتوبيس مسافات ومسافات. ومن السجق فى الظهر والبطاطس والبيض فى المساء.. وقررت أن أدعو فتاة عرفتها وأن نركب تاكسيا وأن

نتناول العشاء فى أحد مطاعم (الشانزليزية) وأن أعيش باريس وليكن مايكون.. ولم تكن الفتاة قاطعة طريق ولكنها كانت مكافحة برتغالية ضد حكم سالازار تعيش هاربة فى باريس.. وقد ظلت تمانع فى تحقيق هذه الرغبة «الحمقاء» ولكنها ذهبت مجاراة لإصرارى وحينما جاءت فاتورة الحساب سقط قلبى.. لقد أدى العشاء إلى اختصار أسبوع كامل من إقامتى فى باريس.. وفق اللائحة المحددة .

وأخذت أدفع هذه المشاعر.. إننى لا أحب عادة أن أكره أحدا أو أكره شيئا.. ولا أريد مطلقا أن أكره بلدا أو أكره شعبا. ولو كان «فرنسا» وأخذت أتذكر فرنسا الأخرى.. فرنسا جاك بيرج ومكسيم رودنسون وجيل مارتينييه وشرابيير .

«جاك بيرج» الذى ولد فى الجزائر والذى أحب العرب والذى كتب عنهم كتابا من أحسن ما كتب عن العرب المعاصرين. والذى يدرس فى الكوليج دى فرانس تاريخ الثورة العربية وعصر توفيق. والذى يكافح من أجل الجزائر ومن أجل حرية الجزائر. ويريد أن يبدع حلا اشتراكيا.. ويبنى مرة أخرى الصلات الروحية بين فرنسا والعرب.. صلات محتومة. بالماضى والمستقبل.

ومكسيم رودنسون العضو السابق فى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى والذى عاش زمنا فى سوريا ولبنان.. واشترك فى ثورتيهما.. الذى استقال من الحزب لضيق أفق موريس توريز وجموده ولعجز الحزب عن فهم القوى الجديدة. رودنسون يكتب كتابا عن «النبى محمد» ﷺ ويكتب عن الإسلام كثورة من أعظم الثورات الروحية والاجتماعية فى التاريخ. والذى ظل يقول إن موريس توريز لم يجن على الشيوعيين الفرنسيين فحسب ولكنه جنى أيضا على الشيوعيين العرب.. طبعهم بطابعة وطابع حزبه فلم يفهموا شيئا وكنسهم الإعصار الجديد.. وجيل مارتينيه محرر الأوبزرفاتير الذى قال لى:

«إن الجزائر هى درامة حياتنا.. لابد أن تنتهى.. إن حرية الجزائر هى حريتنا. حرية مصر هى حريتنا.. ومكان فرنسا الطبيعى والتاريخى هو بين الشعوب الصغيرة والمتحررة وغير المنحازة. وكل قواتنا وتاريخنا وطبيعتنا تؤهلنا لهذا ولا تؤهلنا لامكان آخر.. إننى زرت مصر وأحب مصر – وأتبع نهضة مصر – وحينما تعود لابد أن ترسل لى خطط التنمية لأننى أريد أن أكتب سلسلة مقالات عن مصر» .

تذكرت هؤلاء لأمحو الصورة.. ولكننى أحسست أن هؤلاء أصوات صارخة فى البرية. أصوات ضائعة لا يسمع لها أحد ولا تستطيع شيئا فى تحديد مجرى الأمور .

وحينما ارتفع صوت مضيفة الطائرة قائلة: «بعد لحظات سنهبط فى مطار روما. ونشكركم على السفر معنا. ونتمنى للمغادرين رحلات أخرى طيبة».. انزاحت الذكريات وبدأت أستعد للعالم الجديد. روما. من الإمبراطورة مسالينا إلى صوفيا لورين. سأعيش كسائح. مجرد سائح .

وذات يوم كانت مقاعد الدونييى مزدحمة ازدحاما غير عادى. كانت غزوة من السياح الأمريكيين الذين يزحمون كل ركن وكل شبر فى روما. وجاءت حسناء غراء فرعاء هيفاء وأخذت تتطلع هنا وهناك. وأبصرت المقعد الخالى على منضدتى.. وحامت حوله قليلا ثم تقدمت وقالت بإيطالية عذبة.. أو هكذا بدت لى.. تسمح. ورددت بإحدى الكلمات الخمس الإيطالية التى تعلمتها. «تفضلى» وجلست وطلبت كأسا من المارتينى وأخذت تقلب فى بضع مجلات فى يدها وطبعا بدأت أفكر فى مغامرة. ربما كانت هذه بداية مغامرة.. وبدأت أفكر أننى أعود إلى مصر بغير شىء قط أرويه للذين سوف سيسألوننى قبل ثورة الجزائر وقبل حكم

ديجول وقبل السوق المشتركة. السؤال التقليدى عن مغامرة فى باريس .

ولم يكن هناك شيء مطلقاً أرويه. ومر بائع الصحف واشتريت بعض الصحف الفرنسية والأمريكية واستغرقت فى القراءة ونسيت الحلم البعيد الذى طاف بخيالى منذ لحظات! ووضعت صحيفة الموند على المنضدة حتى أتصفح صحيفة أخرى.. ومضيت فى القراءة.. وبعد لحظات التفتت إلى وقالت بالإيطالية جملة طويلة لم أفهم منها شيئا.. وقلت بالفرنسية.. آسف.. إننى لا أعرف الإيطالية.. لا أعرف سوى خمس كلمات رددت عليك بواحدة منها .

وضحكت وقالت بالفرنسية: هل أستطيع تصفح جريدة الموند؟.

وقلت لها: تفضلى .

وقالت: هذه أرقى صحيفة فى أوروبا الآن. ليس لدينا صحيفة مثلها فى إيطاليا .

ولم أدر ما أجاوب به.. فقلت لها «صحيح».. للأسف إننى لا أقرأ الإيطالية. ماهى أحسن الجرائد عندكم ؟

وأمسكت الصحيفة بيدها وقالت. «من أين أتيت؟»

قلت لها: من باريس .

قالت: هل أنت فرنسى ؟

- لا ..

- لماذا. لا هذه. منفعلة جدا. يبدو أنك لا تحب فرنسا ؟

- ربما لا. هل تحبين الفرنسيين أنت ؟

- لا أحبهم ولا أكرههم.. مساكين. هل أنت سائح ؟

- نصف سائح.. أقضى بضعة أيام فقط فى روما .

- ماذا تفعل ؟

فهمت أنها تسألنى عن مهنتى لا عما أفعله فى روما. فقلت لها :

- أنا صحفى .

- إذن ذاهب إلى فيينا ؟

وكان أيامها اجتماع خروشوف وكيندى فى فيينا ..

فقلت لها :

- ربما ..

- ومن تفضل. خروشوف أم كنيدى ؟

- ومن تفضلين أنت ؟

- أنا أختار فيينا. أجمل مدينة فى أوروبا .

– ثم ..

– خروشوف. أنا لست شيوعية ولكننى أجده سمباتيك إنه رجل طبيعى. وبسيط. أما كيندى فيبدو أنه ينظر لنفسه فى المرآة كل يوم ويعجبه وجهه .

– ألا تحبين الأمريكيين ؟

– نعم.. نعم. لا أحد فى أوروبا يحب الأمريكيين إلا الوزراء والجنرالات. وأصحاب الفنادق. والكباريهات.. وهل تحبهم أنت ؟

– لا أحبهم ولا أكرههم.. مساكين .

وضحكت طويلا.. وقالت لى :

– من أى بلد أتيت ؟

– من مصر .

– آه.. مصر بلد جميل أختى عاشت عاما هناك .

ونظرت إلى ركن المقهى فأبصرت منضدة تخلو فى مكان أنسب فقالت ؟

– هذه منضدة أحسن سأنتقل هناك .

وتبخرت أحلام المغامرة. وانتهت القصة. وضاع حلم قصة أرويها فى القاهرة للجياع إلى المغامرات ولكنها بنفس الابتسامة الساحرة قالت :

– هل تنتقل إلى تلك المنضدة ؟

– بكل سرور طبعا .

وإذن هناك شيء نرويه بعد العودة «للأولاد».. هناك شيء نستدرك به مافات في باريس .

وحينما انتقلنا إلى المنضدة الأخرى التفتت إلى قائلة :

– والآن قل لي لماذا لم تحب باريس !

– فرنسا دولة انتهت.. انتهت منذ هزيمتها في يونية سنة ١٩٤٠ وأقبح شيء هو رؤية كائن يعيش في غير عصره .

– ليس ١٩٤٠.. فرنسا انتهت عام ١٨٧٠ بعد هزيمتها أمام بسمارك، ومن ذلك الحين وهي تعيش على حقن صناعية وعلى أوهام كاذبة.. عجيبون هؤلاء الفرنسيون.. إنهم يقولون دائما إنهم منطقيون وإنهم واضحون وإنهم واقعيون ولكن أكبر شيء يخافونه هو النظر إلى الحقيقة في عينيها.. نحن الإيطاليين قد تخلصنا تماما من هذه اللعنة.. وكانت الهزيمة بالنسبة لنا نقطة البداية.. وأحسن شيء حدث لنا أننا لم نقل إننا لم نهزم وإننا قد طعنا من الخلف، بل تبدد الوهم الفاشيستي الكبير وأحلام إمبراطوريتنا ومجدنا.. نحن أردنا أن نعرف أنفسنا على حقيقتنا.. أن نعرف تماما وبالضبط من نحن.. وهذا سر موجة

الواقعية الجارفة التي طبعت كل شيء في حياتنا في الأدب والمسرح والسينما والسياسة والاقتصاد والاستراتيجية، وليس في إيطاليا كلها ربما ماعدا حفنة من المختلين من يأسف على عهد موسوليني.. ولكنا نراها فترة من الشذوذ غير الطبيعي كل ما فعلته أنها علمتنا كيف نكون الآن شعبا طبيعيا.. أما هؤلاء الفرنسيون.. فغريب أمرهم.. لقد عشت في فرنسا خلال الحرب كان أبي ضابطا في جيش موسوليني وكنت صبية صغيرة وكان ديجول لا يمل الحديث عن عظمة فرنسا ومجد فرنسا ودور فرنسا التاريخي وأخيرا فضائل فرنسا.. وكان أبي يثيره هذا أحيانا فيصيح «فضائل.. إن كل صالونات باريس مفتوحة على مصاريعها لضباط الألمان وكل نساء فرنسا يتهافتن على صداقة أصغر ضابط ألماني ويحسسن بزهو كبير لو دعاهن إلى مخدعه.. مع ذلك يتحدث ذلك العجوز الأحمق: عن الفضيلة الفرنسية» .

وأحسست أن علاقتنا قد توثقت بعض الشيء فسألتها :

- إننا لم نتعرف على بعضنا البعض حتى الآن.. إنني لم أعرف بعد اسمك ولا ماذا تعملين.. هل صحفية مثلا ؟

- صحيفة هل تعتقد أنني أصلح.. على كل لقد جربت

الكتابة.. مجرد محاولات ولكننى لا أكتب الآن سوى يوميات قبل أن أنام .

– إذن ماذا تفعلين ؟

– ماذا أفعل؟ أشياء كثيرة.. بعضها يصح أن أقوله وبعضها لا يصح؟ بماذا تبدأ ؟

– طبعا بالذى يصح .

– أنا مصممة أزياء.. أعمل بتصميم الأزياء فى محل فى بولونيا. أنا لست من روما.. ولكننى تعلمت الفنون وأشياء أخرى كثيرة فى روما ..

– أنت فتاة مدهشة ..

– لا ليس كما تتصور.. هناك آلاف من الفتيات أحسن منى بكثير فى روما .

– ولكن فهمك السياسى.. وذكاؤك السياسى .

– هذا ليس فهما ولا ذكاء.. هذا مجرد معلومات عامة، لقد طفت كل أوروبا .

– وهل تبقين كثيرا فى روما ؟

– هناك أغنية إيطالية تقول إذا كنت جميلة وغنية فإنك تستطيعين البقاء كما تشائين فى روما: وإذا كنت غنية فقط فإنك

تستطيعين البقاء أيضا، أما إذا كنت جميلة فقط فربما تستطيعين البقاء.. ويجب أن تحاولي.. إنني أبحث عن عمل هنا ولكن هل تريد أن تعرف ماذا أريد حقا ؟..

– طبعا أريد أن أعرف ؟

– أريد أن أترك أوروبا كلها.. أريد أن أذهب إلى بلد حى مضطرم جديد فى أفريقيا أو فى آسيا.. إن كل شىء فى أوروبا الآن ساقع بارد كالطعام الأمريكى المحفوظ أو كشراب معقم لا نكهة له ..

هل تدرى أننى أحب الأفريقيين والعرب والآسيويين؟.. إنهم يجدون شيئا يعيشون ويموتون من أجله.. أما نحن هنا فى أوروبا..

– كثيرون عندنا لو رأوا هذا الرخاء الذى عندكم أو تصوروه فسوف يحسدونكم عليه .

– هذا الرخاء الذى تراه.. ينتهى بعد الفيافينتو بقليل، ولو رأيت الجنوب فى إيطاليا، لوجدت نفسك تماما فى مصر أو فى ليبيا، وحتى هؤلاء الذين يتمتعون بهذا الرخاء ليسوا سعداء كما تتصور ولا مكترثين بما لديهم.. وأنا مثلا على استعداد لو وجدت عملا فى قرية مصرية صغيرة أن أذهب أصمم أزياء للفلاحين عندكم.. ألا يمكن ؟

وضحكت كثيرا .

إن الفلاحين عندنا لم يجدوا بعد ما يلبسونه حتى ينتدبوا من يصمم أزياءهم، والتصميم واحد منذ أول جلابية لبسها فلاح،.. ولن تستطيع تغييره طبعا ولكننى تمنيت لو استطعت أن أصحبها معى.. طبعا ستكون الدليل القاطع على مغامرة .

أحسست معها أننى أدركت الفرق بين المرأة الأوروبية والمرأة عندنا.. الفرق بين المرأة الناضجة المتكاملة عقلا وجسدا وروحا والتى يستطيع الإنسان أن يعيش معها حياة كاملة ومتجددة، وبين تلك السطحية المتكلفة المدعية التى ينتهى كل ما عندها بعد لحظات وتغدو حملا ثقيلا مملا، وتذكرت صديقا لى يعيش بحسرة عمره لأنه رفض أن يتزوج زميلته الإنجليزية التى أحبها وأحبته وفهمته لأنه أراد ألا يخون بنات بلده: ولأنه تصور أنه لن يشعر بالامتزاج الكلى الوثيق إلا مع بنت من بلده.. وبعد شهر كان يعيش فى الفراغ القاتل.. كان يعتصر مخه ونفسه ليجد شيئا مشتركا يحدثها عنه وغالبا.. لا يجد وأيقظتنى من (السرحة) قائلة :

– فيم استغرقت ؟

– فى قريتنا. لا شىء يربطنى بمصر أعمق وأعنف من

قريتنا.. مأساة قريتنا.. هل تتصورين أنى لا أومن مطلقا بالهرب؟ إن المصرى لابد أن يعيش فى مصر ويخوض معركة مصر، ويعيش ويموت وينتصر هناك .

– هذا التفاؤل والحماسة هما ما أحسد عليها الشرقيين، إننى أتمنى أن تكون لنا معركة وأن أكون أول واحدة تسقط فيها ولكن المصيبة أن ليس لدينا معركة.. ليس لنا معركة.. لقد كنت شيوعية وكنت اشتراكية وكنت كاثوليكية، وحاولت أن أجد ما يملأ حياتى فى الحزب الشيوعى أو الحزب الاشتراكى أو فى أحضان الكنيسة ولكن لم أجد شيئا.. إن الحزب الكاثوليكى هو فرع من جهاز ال، ف، ب. أ الأمريكى لمقاومة الشيوعية وهو منقسم بين الذين يؤرقهم بقايا ضمير كاثوليكى.. وبين الذين باعوا روحهم نهائيا.. والحزب الاشتراكى انقسم على نفسه بين ساراجات ونينى، وساراجات باع الاشتراكية.. ونينى يقف حائرا هل ينضم إلى الكاثوليك لينشئ كتلة وسطا أم يبقى مع الشيوعيين ويسير معهم إلى بيداء سياسية؟.. أما تولياتى فلا يعرف كيف يواجه نينى.. أو يواجه حزبه.. وهل يسير مع روسيا أم مع الصين أم يستقل عن هؤلاء وهؤلاء ؟.

– اسمعى.. ولا تقولى «تفاؤل شرقى» إننى أدرك أبعاد

المشكلة وأدرك وطأتها ولكننى أثق ثقتى فى رؤيتك أمامى أن الإنسانية ستجد الطريق ..

أتدرين أين وضعت يدى على مفاتيح الحل؟ فى مدينة صغيرة فى الهند قرب كلكتا أنشأ طاغور جامعة صغيرة من بضعة بيوت من الطين، وبضع أشجار باسقة عتيقة على نسق جامعات الهند القديمة، حيث كان الأساتذة الكبار يعملون تحت الأشجار وسماها حديقة السلام «الشانتينكتين» وفى هذه الجامعة وجدت أساتذة وتلاميذ من الشرق والغرب ومن كل الديانات والمذاهب والعقائد ومن كل السنين والأعمار يدرسون ويتعلمون معًا. والأوربى بجوار الصينى والمسلم بجوار الهندوسى والمسيحى، والمرأة بجوار الرجل والطفل جنبا لجنب مع الكهل.. ويدرسون معا كل تراث الهند وكل تراث الشرق وكل تراث الغرب.. ويرون الماضى فى صلته بالحاضر بالمستقبل وقالوا لى إننا نؤمن بالتفاعل والامتزاج.. إن الإنسانية مقبلة على عصر عظيم يتفاعل ويتصارع ويمتزج فيه كل شىء.. وسوف يخرج شىء جديد.. ووضعت يدى يومئذ على الحل. وغلبتنى الحماسة.. ولكنى رأيتها تنظر فى ساعتها، وأحسست أن معظم رواد المقهى الحاشد عادة بالناس قد انصرفوا

وسألتها: كم الساعة ؟

فقالت – الحادية عشرة.. مثل هذه المناقشات يمكن أن تستمر حتى الصباح .

وأحسست فى وجهها شعورا غريبا بالحرج أو الرغبة فى شىء تتردد فى أن تقوله.. ولكنها التفتت إلى قائلة: هل تناولت عشاءك ؟

– لا ..

– هل تدخل لتناول العشاء فى الداخل ؟

وشعرت بالحرج الشديد لقد درسست قائمة «الدونييى» بدقة وعناية، وكان العشاء أو الطعام آخر شىء أفكر فيه.. إن عشاء أو غذاء واحدا سيقلب كل «التخطيط» الدقيق الذى وضعته لإقامتى فى روما. وحسب الخطة كان العشاء دائما رغيفا وجبنا وبعض قطع من اللحم البارد كنت أشتريها من بقال قريب من الفندق، وآكلها فى الحجرة، ولم أدر بماذا أرد عليها ولكننى استجمعت شجاعتى وخيالى.. وقلت :

– إن تجربتى فى باريس، قد أقنعتنى أن الأكل الجيد لا يوجد إلا فى المطاعم الصغيرة. الأماكن مجرد ديكور.. ولماذا لا نكتشف مطعما إيطاليا صغيرا.. نأكل فيه طبقا إيطاليا..

«الاسباجيتى» مثلا ..؟

ونظرت إلى نظرة غريبة لم تكن نظرة المثقفة المتعالية التى كانت تتحدث بها طوال المساء وقالت :

– ما مشاريعك الليلة ؟

– تتوقف على مشاريعك أنت ؟

– هل تريد قضاء «وقت طيب» .

«وقت طيب»؟ لقد صدمتنى الكلمة.. ولأول وهلة خيل إلى أننى لم أسمع جيدا، أو أنها لا تفهم معناها بالإنجليزية؛ فقد قالتها بالإنجليزية وهذه عادة كلمة «بائعات الهوى» وسألتها .

– ماذا تقصدين .؟

– وقتا طيبا.. يمكن أن تذهب إلى شقه أنيقة قريبة.. ولن يكلفك هذا أكثر من ثلاثين ألف ليرة ..

«يا رباه» لقد أحسست كأن سكينا حادة نفذت إلى قلبى أو كأنى سقطت من برج على ارتفاع ألف قدم.. هل يمكن أن تكون هذه بغيا؟.. كل هذا الجمال وكل هذا الذكاء فى «بائعة هوى».. ونظرت إلى وجهها. وبدا لى أن كل جمالها قد غاض وأحسست أننى أرى تجاعيد فى وجهها أخفاها المكياج، وخطوطا تحت عينيها أخفاها الحديث وأصبحت كلها شيئا رخيصًا.. باردًا

كالطعام الأمريكى المحفوظ فى العلب، بلا نكهة.. كالشراب المعقم. بشعا كصورة «دوريان جراى» .

نظرت إلى وفى عينيها برود وعدم اكثرات وقالت :

– هذه هى الأشياء التى قلت لك إننى أفعلها ولا يصح أن أقولها .

وازدادت نظرتها برودا وعدم اكثرات وقالت :

– هل قطعت برأى ؟

وتصورت أنها قد أنفقت الليلة فى الحديث معى، وأنها قد أضاعت وقتها عبثا.. وأن الوقت قد يكون متأخرا لكى تبحث عن أحد آخر، وربما كانت جائعة حقا .

وأخرجت عشرة آلاف ليرة.. وقلت لها :

– أستطيع أن أقرضك هذه.. إذا كنت محتاجه إلى نقود.. وتردينها فى الغد.. إننى متعب بعض الشىء فقد قضيت النهار كله فى الطواف وأريد أن أنام مبكرا وأستريح .

ووضعت النقود على المائدة وقالت :

– لا.. لا.. لقد سعدت جدا برؤيتك والحديث إليك.. وإلى اللقاء وقامت إلى الرصيف.. واستوقفت «تاكسى» واختفت .

ونظرت إلى كراسى المقهى الفارغة، وإلى الفيافينتو الذى فيه الحياة، وأحسست بوحدة ثقيلة .



◇ القمص سرجيوس



كان أبى قسيسا وجدى قسيسا وجد جدى قسيسا ولهذا كان طبيعيا أن أنتظم أنا الآخر فى سلك الكهنوت. وكنت أستمع إلى القسس والوعاظ الذين يطوفون القرى والبلاد ويخلبون - أحيانا - ألباب الناس.. فأحلم أن أكون مثلهم .

وفى المدرسة الإكليريكية بالقاهرة بدأت أمارس هوايتى وقدرتى على الخطابة. وكانت نظم التعليم فى المدرسة تقوم على الأساليب الكنسية القديمة ولذلك اتخذت من موضوعها مادة لخطبى وجعلت أطلب بإصلاحها لكى لا نتهم بالجمود والرجعية. وما لبثت هذه الدعوة أن انتشرت بين الطلبة ورسخت فى نفوسهم فعقدوا اجتماعا عاما وانتهوا فيه إلى اتخاذ عدة قرارات حملتها بنفسى إلى رجال المدرسة وكان نصيبها الرفض ولم أملك إلا أن أدعو الطلبة للإضراب .

وهكذا وقع أول إضراب فى تاريخ مصر وكان ذلك سنة ١٩٠٢ !

وبعد إضرابنا بقليل أضرب عمال السجاير ذلك الإضراب

الذى يؤرخون به حركات الإضراب والعمال فى مصر. ثم نشرت أنا سلسلة من المقالات فى الصحف المصرية شرحت فيها أسباب الإضراب فى المدرسة والأسس التى قام عليها فانهالت البرقيات والاحتجاجات على المدرسة، الإكليريكية وتطالب جميعا بتحقيق مطالبنا .

وبهذا سويت المسألة وظللت حتى تخرجت فى المدرسة وأردت أن أشتغل واعظا عاديا ولكن رجال الكنيسة رشحونى لكى أكون قسيسا فطلبوا منى أن أتزوج فتزوجت وكنت وقتئذ فى الحادية والعشرين من عمرى. ومنذ ذلك اليوم - أى منذ خمسين عاما - وأنا أعيش مع زوجتى التى أنجبت منها خمسة بنين وخمس بنات .

ورشحت قسيسا فى ملوى وبدأت أجهر بآرائى منذ المدرسة وهى الإصلاح.. واعتبر بعضهم هذه الآراء اجتراء على التقاليد الكنسية فاعتزلت خدمة الكنيسة وعملت كواعظ عادى .

وفى كل مكان كنت أجد تأييدا وحماسا شديدا من الناس وأجد معارضة ونقمة وسخطا من رجال الكنيسة فسافرت إلى السودان وقمت بجولة كبيرة فى ربوعها، واستطعت خلالها أن أكتسب محبة الجميع، ولهذا قصة.. تصادف أننى سافرت إلى

السودان على أثر مصرع بطرس غالى وكانت العلاقات بين المسلمين والأقباط متوترة بسبب هذا الحادث، وحتى النادى المصرى الذى كان رمز وحدة المصريين فى الجنوب انقسم أعضاؤه على أنفسهم للسبب نفسه وتكون ناد آخر أطلق عليه «المكتبة القبطية» .

وذات يوم دعيت لإلقاء محاضرة فى هذه المكتبة وأذيع أن عنوان المحاضرة سيكون «تفوق دانيال» وفى قاعة المحاضرة وجدت جمهورا غفيرا.. كان عدد المسلمين فيه أكثر من عدد الأقباط وهنا رأيت الفرصة سانحة فقلبت موضوع المحاضرة إلى «عيشوا بسلام» وكان لهذه المحاضرة أثر كبير فى القضاء على الخلاف.. وقد هنأنى عليها رجال الدين المسلمون. وفى السودان أنشأت مجلتى «المنارة المصرية».وجعلت منها متنفسا لآرائى وكانت هى والخطب والعظات التى ألقيها مثار إعجاب شديد وجدل ونقد. وفى ذات يوم استدعانى «مستر مور» مدير الخرطوم، وقال لى: «إن الحاكم العام للسودان يطلب إليك أن ترحل فى خلال آربع وعشرين ساعة» .

فقلت له: «أنا لست فى لندن حتى يأمرنى الحاكم العام بمغادرة البلاد فى أربع وعشرين ساعة، أنا هنا فى بلادى

وليرحل هو إذا شاء» .

فقال: «لا تحرجني يا سرجيوس ونفذ الأمر» .

فقلت: إن الطريقة الوحيدة التي تستطيع بها تنفيذ الأمر هي أن تضع القيود في يدي وقدمي وتخرجني من بلادي في الجنوب قسرا حتى أشهد العالم على استبدادكم .

وعمد الرجل إلى الملاينة فقلت له: إنني أريد أن أعرف السبب أولا .

فقال لي: «لو قلت لك السبب هل تعطيني كلمة شرف تعد فيها بمغادرة البلاد؟»

ولما وافقت قال لي: «أنت بطبعك تنزع إلى الحرية ونحن نحكم هذه البلاد بالسيف، ولهذا فإن طبيعتك لا تلائمنا وسوف نتعبك وتتعبنا».

وعدت إلى مصر سنة ١٩١٥ وقبعت في جرجا .

وظللت بعيدا عن القاهرة حتى شب أولادي فأردت أن ألحقهم بالمدارس واضطررت للسفر إلى العاصمة واخترت لمقامي مسكنا في حي الفجالة وظلت حياتي موزعة بين الدراسة والوعظ والعبادة حتى أحد أيام سنة ١٩١٩. وكنت قابعا في بيتي عندما سمعت ضجيجا وصخبا في الشارع ولما تبينته وجدته مظاهرة من الشباب تهتف «يحيا سعد.. يحيا الاستقلال» ولما سألت عن السبب قيل لي إن المستعمرين قد اعتقلوا سعد زغلول الذي

طالب بالاستقلال التام .

وهنا تدفقت الدماء حارة إلى رأسى وكأنما براكين الدنيا كلها قد تفجرت فأسرعت إلى الشارع وانضممت للمتظاهرين وسرنا نهتف ونصيح حتى انتهت بنا المظاهرة إلى الأزهر. وفى تلك الفترة كان حصن الثورة الحصين؛ ولهذا ألقيت به عصا الترحال وظللت قرابة ثلاثة أشهر ألقى كل يوم ما لا يقل عن خمس خطب فى الموظفين بعد انقضاء الصلوات الخمس، وكنت قبل أن أتهيأ للخطابة أذكر كلمات الإنجليزى الذى طردنى من السودان وأقول لنفسى: «من يكره الحرية أكرهه ومن يحاربها أحاربه» ولم أترك شارعا أو مسجدا أو كنيسة إلا وخطبت فيها داعيا لتعبئة الشعور ضد أعداء البلاد .

واحتاج الوفد للمال وصحبت فتح الله بركات فى جولة بين القرى والكفور، وكنت أظل أخطب فى أهلها حتى يصل المستمعون إلى مرحلة التضحية فأشير إلى فتح الله بركات، وكان يحمل حقيبة كبيرة كحقيبة القومسيونجية فيفتحها أمام المستمعين وإذا هى تمتلئ فى لحظات بالأموال .

وذات يوم كنا فى ميدان الأوبرا وكان أكثر من عشرين ألفا قد وقفوا صامتين كأن على رءوسهم الطير يستعدون للاستماع

إلى خطابى وصعدت على أكتاف طالبين وفى وسط هذا الصمت الرهيب بدأت خطابى قائلا: اهتفوا معى «يحيا الإنجليز» .

وبهت الجمع الحاشد لهول المفاجأة وعدت أقول.. لن أهبط حتى تهتفوا.. «يحيا الإنجليز». فهتفوا واستطردت قائلا:

«يحيا الإنجليز الذين استطاعوا بظلمهم واستبداهم وفجورهم أن يجعلوا منا هذه الكتلة الموحدة المقدسة الملتهبة» وصفقوا تصفيقا صم الآذان .

ومرة أخرى كنت فى السرادق الضخم الذى أقيم لتكريم سعد بعد عودته من المنفى، وكان زعيم الوفد فى أوج عظمته وكنت قد ذهبت إلى السرادق بعد جفوة بينى وبين فتح الله بركات باشا وأخذت الجماهير تنادى: سرجيوس.. سرجيوس سرجيوس.. ووقف سعد - رحمه الله - قائلا فليسمعنا خطيب الثورة كلمته .

وصمت الجميع. وقفت أخطب فقلت: «والله إنك لمجنون يا سعد!» وبهت الجميع ولكننى استطردت: والله إنك لمجنون يا سعد إذا تقوم على دولة عظمى خرجت منتصرة من حرب عظمى وتملك كل شىء ولا تملك أنت شيئا.. ثم تنتصر عليها» .

وفى كل مقطع كنت أكرر «والله إنك لمجنون يا سعد» .

وفى نهاية الخطاب قام سعد من مكانه واحتضننى قائلا: مجنون والله.. ياسرجيوس.. وضجت الجماهير بالهتاف والتصفيق .

وذات يوم استدعانى «كين بويد» مدير الأمن العام وقال لى «أنت عدونا الأكبر» وبت ليلتئذ فى ثكنات قصر النيل نزيل غرفة جمعت فى أرجائها كل أنواع البعوض والبق والبراغيث والفئران وفى الصباح اقتادنى إلى أحد المعتقلات فى رفح وكان يزاملنى فيه النقراشى والقاياتى وأبو شادى والخولى وكثيرون غيرهم.. هناك عكفت على قراءة القرآن وعلى دراسة التفسير كما قرأت للرازى والنسفى والبيضاوى وتفسير الجلالين والملل والنحل وغيرها .

ذات يوم كنا نقف مع ضابط المعتقل فقال: «إن المصريين المتوحشين قتلوا جنديين بريطانيين اليوم» ورد عليه أحد المعتقلين قائلا: «هذا أمر مؤسف» .

فاندفعت أنا قائلا: إن قتل جنديين بريطانيين يعد وحشية وقتل الصبيان والغلمان المصريين وحصدهم بالمدافع الرشاشة لأنهم يطالبون بالاستقلال.. هل هو فى نظركم مدنية ؟

وحقد على الضابط الإنجليزى المتعجرف؛ ولذا ظللت فى

المعتقل حتى أغلقته وجئت بمفاتيحه «وضبته» إلى القاهرة وكان ذلك فى سنة ١٩٢٠ .

ودعت جمعية التوفيق القبطية إلى مؤتمر للإطلاح القبطى وهو الوتر الحساس الذى يدفعنى لنسيان كل شيء، فعقد المؤتمر وجاهرت فيه بكل الآراء الثورية التى كنت أراها فى مشاكل الإصلاح.. وإذا بقرار يصدر بحرمانى من الكنيسة والحرمان معناه الإعدام الأدبى فى المسيحية ولم يكتف القرار بحرمانى فقط وإنما نص أيضا على نفيى من القاهرة إلى بلدتى جرجا ورفض نسيم «باشا» وزير الداخلية وقتئذ تنفيذ أمر النفى وقال :

«كيف أنفى رجلا وصلتنى ستة زكائب إحتجاجات من أجله من المسلمين والأقباط» .

وأرسل بعضهم إلى الحكمدار رسل «باشا».. يقولون إن سرجيوس سيلقى عظته غدا فى كنيسته - وهى الكنيسة التى بنيتها بنفسى سنة ١٩١٥ ومازالت حتى الآن منبرى الذى لا أكاد أحرم حتى أعود إليه - وإن هذا سيثير قلاقل شديدة فاستدعانى رسل «باشا» ولما ذهبت إليه قال :

- يا سرجيوس أنت محروم من الكنيسة فلا تذهب للصلاة أو العظة .

فقلت له :

– أريد متمكنا من الترجمة من العربية للإنجليزية حتى يترجم لك بيتا من الشعر .

ولما جاء المترجم قلت له ترجم هذا البيت .

لا تنه عن خلق وتأتى مثله   عار عليك إذا فعلت عظيم

وتأملنى رسل متعجبا وقال :

– ماذا تعنى بهذا ؟

– أنت تقول إننى محروم من الكنيسة وتنسى أنك أيضا مثلى محروم منها.. وأن ملكتك محرومة هى الأخرى بل إن كنيستك كلها محرومة، وستظل حتى تذهب أنت وهم جميعا حفاة إلى روما لتطلبوا الغفران فلن يتقبل منكم، ألا تعرف يا «رسل» أن هذا الحرمان قائم ضدك منذ هنرى الثامن ؟

واستلقى رسل على قفاه من الضحك ونادى أحد ضباطه وقال له :

– فيلبس.. غدا تصحب أربعين جنديا لحراسة سرجيوس حتى يفرغ من صلاته وإلقاء عظاته .

وجاء «فيلبس» فى اليوم التالى فوجد كل الشوارع المؤدية للكنيسة مسدودة بكتل بشرية متراصة ولم يستطع أن يجد

لنفسه طريقا إلا بشق النفس وحينئذ التفت إلى قائلا :

- ياسرجيوس أنت مارتن لوثر مصر .

وظللت فى كنيستى مدة عام أعانى قرار الحرمان وما لبثت الكنيسة هى الأخرى حتى انتزعت منى، ولكننى لم أيأس وذهبت إلى الفجالة واستأجرت فناء كبيرا صففت فيه المقاعد وأقمت حوله سورا واتخذت منه كنيسة ومنبرا للعظات وكان الذين يهرعون إليه يفوقون عدد الذين يذهبون إلى عدة كنائس مجتمعة .

وظللت فى كنيستى الجديدة حتى سنة ١٩٣٥ حينما أعدت لكنيستى الأولى ولبعض الوقت فقط، لأنه صدر ضدى قرار حرمان ثان سنة ١٩٣٦ وعدت مرة ثانية سنة ١٩٣٧ .

وفى سنة ١٩٤٩ رأيت أن أخوض معركة الانتخابات .

والتفت جماهير الحى حولى وكان شعارها: «من غير فلوس ياسرجيوس» فلم يكن معى مليم أشترى به نصف صوت وكاد تأييد الناس أن يكسبنى المعركة لولا أن طلب إلى النحاس أن أتنازل عن الدائرة لإبراهيم فرج وبحق ذكرياتنا وكفاحنا القديم فتنازلت وأرسل لى النحاس خطابا قال فيه: «لقد أضفت موقفا مشرفا إلى مواقفك الوطنية السابقة» ووجدت فى الخطاب

ترضية وتكفيرا عما ارتكبه الوفد فى حقى .

والتفت إلى الإصلاح القبطى ثم صدر قرار حرمات آخر فرفعت أمرى إلى القضاء العادل فأعادنى إلى الكنيسة.. والبقية تأتى !!

لن أكف مطلقا !





◇الأب عيروط



كان يجلس كل يوم ليرقب العمال وهم يصعدون «السقايل» وينزلون؛ فقد كان أبوه مقاولا كبيرا وكان يعده أن يكون مثله مهندسا ومقاولا ورجل أعمال وبناء !

وشيئا فشيئا أخذ الفعلة يستولون على تفكيره وبدأ يتتبعهم فى غدواتهم وروحاتهم، وأخذ يمعن النظر فيهم خلال العمل والطعام والفراغ واستقرت فى نفسه صورة عميقة لكنها بشعة مخيفة للحياة والناس .

استيقظ أهله ذات يوم فلم يجدوه ووجدوا منه خطابا.. لقد سافر بعيدا.. ولن يعود.. إنه لا يطيق الحياة مادام لا يستطيع بإزاء إصلاحها شيئا .

وفى فرنسا خلع لباسه الدنيوى.. وآمال أبيه وأحلامه فى البناء وارتدى مسوح الرهبان ليتجرد من كل شىء وليعرف ما يستطيع وما يريد.. وطاف بالأديرة والجامعات ودور العلم اثنى عشر عاما .

ودق جرس الباب ذات يوم وفتح أبوه.. ولم يصدق.. لقد عاد..

وكـان فى إحـدى يديه إنجـيل وفى الأخـرى سـفـر خـالد عن «الفلاح» .

وبدأ يعمل ..

كانت حلوله بسيطة واضحة ولكنها خطيرة كأى شىء بسيط. إنه يريد أولا أن يمزج الدين بالوطن وبالمجتمع، والأغلبية بغيرها من الأقليات مزيجا متناسقا متوازنا.. إنه يرى أن المجتمع كلحن الموسيقى يحتمل التباين والتنوع ولكن لا يحتمل النشاز. وكان كاثوليكيا سورى الأصل من الأقلية التى كانت تنظر دائما إلى فرنسا كحاميتها وراعيتها، ولذا أراد أن يصهر هذه الأقلية فى بوتقة الوطن .

كانت صيحتهالثانية للمسيحيين من بنى دينه لكى يكونوا مسيحيين لا لأنفسهم.. إن المسيحية هى التى دعا إليها بطرس الرسول حينما قال :

«ليكون الخط بينكم وبين الله خطا عرضـيا يتـصل بالغـير لاخطا أفقيا يذهب رأسا للسماء. وإن المسيحى الحق ليس هو اللاوى الذى مر بالجريح وسار ولكنه السامرى الذى دنا إليه وضمد جراحاته وصب عليها زيتا وخمرا وحمله على دابته إلى فندق واعتنى بأمره. وفى الغد أخرج دينارين وأعطاهما لصاحب

الفندق وقال: اعتن بأمره ومهما تنفق فوق هذا فأنا أدفعه لك عند عودتى» .

* * *

وصحب الذين آمنوا به شبانا وشابات وسار بهم إلى حيث بدأ.. إلى ينبوع الشقاء ونفاية البشر.. إلى الريف .

«إننا نخاف أن نقرب هؤلاء الناس لأننا نخشى أن نفهمهم فنحبهم ونحس وزرنا نحوهم، وهكذا نعيش عميانا أمام الكنوز الزاخرة الكامنة فى أعماق هؤلاء الناس. وواجهته حقائق الإصلاح صلدة جامدة فآمن «إن ما يحتاج إليه مجتمعنا إنما هو إعادة بنائه من جديد.. لأن البناء القائم متداع ومنهار ولن يصلح فيه الرتق والترميم ولن يصلحه أيضا أن نهدمه بالعنف والثورة. ولكن بأن نوقظ قوى البناء والتطور.. وبأن نخلق جيلا جديدا» .

وحينما تَلَّمس مادة الجيل الجديد وجدها فى الفلاحين أنفسهم. منذ خمسين عاما كتب عالم أجنبى عاش فى مصر يقول.. إن حلول المشاكل المصرية كامنة فى التربة المصرية وفى نفوس المصريين أنفسهم ..!

ومن هنا.. بدأ جهاده الأكبر .

«ان الفلاح الصغير يحفظ فى أعماق روحه تراثا إنسانيا رائعا هو مخلفات الحضارات القديمة بكل ما اعتورها من عقائد وحروب ومجاعات.. ومن انتصارات وأساطير وآثار خالدة. كل هذا يحفظه الفلاح الصغير فى روحه الواسعة اتساع العالم. وإن سكونه وهدوءه وسلبيته لدلائل على غنى روحه وعمقها .

.. وتعلم الأب أيضا أنه من هذه الروح لابد أن تولد مصر الجديدة.. فإن الفلاح يتعلم الخلق منذ حداثته ولابد أن نفتح روحه وعقله ليحس بلذة الخلق والابتكار .

ومهارته وأصالته ومجده العريق أكبر ينبوع متدفق لهما على أن نعطيه الفرصة ليعبر عن نفسه وعن مواهبه هذه ..

وجمع الأطفال من هنا وهناك ولكنه لم يعلمهم القراءة والكتابة.. لأنه لم يرد لهم أن يكونوا أفندية أو شيوخا، بل أراد أن يحررهم من الخوف والجبن وأن يحولهم من «أشباح إلى آدميين» .

وكانت وسيلته بسيطه «المحبة» وكما قال المفكر الفرنسى بوسويه «لا معرفة بلا محبة» .

لم يكن أعوانه مدرسين إلزاميين لا يربطهم بالمدارس والصغار سوى المرتب، وإنما كانوا مثله حملة مشاعل يؤمنون

برسالة هى تفسير الحياة والدين لهؤلاء الصغار بحيث يؤمنون بالحياة والدين والمستقبل ويصنعونه بأنفسهم لأنفسهم .

وحركت حبة الخردل الجبل.. ومن فصل واحد قامت ١٢٨ مدرسة و ١٧٠ مدرسا و١١٠٠٠ برعم صغير يتفتح للغد والبناء كلهم أو جلهم مسيحيون كاثوليكيون ولكنهم مصريون أولا .

لقد شيد الراهب الشاب بناء كبيرا أضخم ولا شك مما حلم له أبوه .

وكانت قصة الأب عيروط وفلاحيه الصغار .





◇ مصري من السوربون



كان أحد الذين علمونا مصر.. ربما كما لم يعلمنا أحد مثله.. كان الدرس عادة يوم الجمعة. وكنا نذهب معه إلى حى الحسين ليشترى لنا اللحم من جزار يتعامل معه منذ أربعين عاما، ثم نذهب إلى سوق الخضار فى باب اللوق لنشترى الخضار من خضرى لا يكاد يراه حتى يسلمه توليفة متفقا عليها من أربعين عاما.. ثم نحمل كل هذا ونذهب إلى مصر الجديدة ونشترى فى الطريق الفاكهة من فاكهانى.. «حجز» له ما لا يبيعه لأحد غيره وفى البيت يخلع سترته.. ويرتدى «المريلة» ويدخل غازيا إلى المطبخ.. كان قد عاش عشر سنوات كاملة فى باريس.. «حينما كانت باريس هى باريس» وتشرب كل شىء فيها: علمها وفنها وسحرها.. وأيضا مطبخها.. «الأكل فى باريس فن.. لا تعرفونه يا أكله الفتة» ثم يخرج بطبق أو طبقين.. لايؤكلان إلا فى مطعم أو مطعمين فى اللوكسمبرج أو الشانزليزيه !

وبعد الغداء نشرب الشاى «المنعنع» كما لا يمكن أن يصنعه غيره.. وندخن سيجارا فاخرا.. لا يوجد إلا عنده. ونستغرق فى

مناقشة طويلة.. قد تكون حول الشعر العربى القديم الذى يحفظ أكثره والذى نشر أهم «عيونه» وقد تكون حول التصوير الإيطالى فى عصر النهضة أو التصوير الفرنسى فى القرن التاسع عشر الذى يملك منه مجموعة ثمينة أنفق ثروة طائلة ليحصل عليها.. ثم يبدأ الدرس .

وتتقمصه حينئذ شخصية أخرى.. وتحل فيه روح ثانية ولا يتكلم، بل يزأر :

«أنتم جهلة.. جهلة لا تعرفون شيئا.. كل التاريخ الذى يدرس لكم.. وكل الكتب التى تحت أيديكم كذب.. هراء كل هدفها شىء واحد هو ألا تعرفوا تاريخ مصر» .

«لقد قلت لسعد زغلول سنة ١٩١٩ - وأنا سكرتير صغير له: إذا كنت تريد للثورة أن تستمر فلابد قبل السلاح أو الحماس أن تكتب تاريخ مصر» .

«وفهمها سعد ولم يسخر سعد. ولكنه قال لى.. ما تكتبه يا فالح.. حاكتبه أنا» .

وهو قد فعل وكتب تاريخ مصر.. ولم يكن تاريخا.. لم يكن سرد أحداث أو أشخاص ولكن شعرا وغزلا.. مصر كانت روحه وعقله وكل نفسه كانت عشقه وعلمه وعبادته ولهذا كتبها لا كعالم

ومؤرخ لكن كناسك صوفى يبحث عن نفسه.. وعن وطنه.. حيث سكينة روحه !

وأول كتاب قرأته له.. كان «بذور الوطنية المصرية» وحينما فرغت منه كنت أستغرق فى نشوة وطمأنينة الذى وجد أرضا ليقف عليها.. هذه إذن مصر التى أرادوا تشكيكنا فيها.. وهؤلاء هم أسلافنا الذين شوهوا قصتهم.. وهذا هو التراث الذى سنبنى عليه» !

وظللت زمنا طويلا أقرأ هذا الكتاب مرة كل عام على الأقل، بل كلما هبت نوبات القلق أو التشاؤم كنت أتشبث به.. أو أقرأ فصلا من فصوله.. وأرى مرة أخرى «صورة القواد» الذى كان مقره باريس والذى كانت مهمته توريد الغوانى.. وصورة الجوارح التى انقضت كالطوفان ليقطع كل منها «رطله» من اللحم، وصورة «مفستوفليس» ذى المائة وجه وخطواته إلى الهاوية، ثم صورة الأرواح الطيبة الواعية وعيا لا يصدقه سوى من يقرؤه.. وهى تجتمع ثم تنطلق ثم تهب. لتمنع الكارثة.. ثم الصورة التى لم يقدمها غيره.. ولم يقدمها أحد مثله.. صورة الفلاحين الذين كانوا جيش الثورة والذين لعبوا لأول مرة دورهم فى صنع التاريخ.. من ذلك التاريخ ولدت الوطنية المصرية..

مؤمنة واعية.. وطنية ضباط ومثقفين وفلاحين .

وبحثت عن كتبه كلها بعئذ وقرأتها وبعد أن يفرغ الإنسان منها وبعد أن يقرأها مرة واثنتين لابد أن يسأل: «لماذا لم يكتب هذا الرجل أضعاف هذه الكتب؟» .

مسألة واحدة فقط كنا نختلف معه فيها ولا تقنعنا ثورته وانفعاله.. أنه كتب كل كتبه بالفرنسية ولم يترجم شيئا منها إلى العربية.. وكلما أثرنا الموضوع زأر .

«نعم أكتب بالفرنسية لكى أكتب ما أريد ولكى أقرأ.. من الذى يقرأ هنا.. ومن الذى يقدر.. وأنتم رأيتم بأنفسكم ما كتبه أساتذة التاريخ فى أرقى جامعات العالم.. وما كتبه النقاد فى المجلات الكبرى. هنا عندنا الحسد والحقد والغيرة» .

وكنا نقول له: «هذه كتب للمصريين ليقرأها المصريون لا العلماء فى الجامعات الأجنبية». ولكن آخر ما ننتهى إليه معه هو «ترجموها أنتم.. أنا كتبتها» !

وطالما جلست إلى المكتب ووضعت أمامى «نشأة الوطنية المصرية» وشرعت فى ترجمته .. لا شىء يمكن أن يضاف إلى المكتبة التاريخية أو المكتبة الأدبية العربية .. مثل هذا الكتاب !

ومنذ بضع سنوات انصب على دراسة جديدة «هى العرب فى أفريقيا» وأعلن لنا أنه بعد عشر سنوات سيخرج كتابا غير كل ما كتب عن دور العرب فى أفريقيا : وبعد قليل قال إن الموضوع قد اتسع وإنه سيكتب فقط عن العرب فى «الكونغو» مع مقدمة طويلة .

وظللنا نسـأله عن الكتـاب ولكن في كل مـرة كـان يقـول. الموضوع اتسع أمامى سنة أخرى ثم يثور: «ماذا تظنون.. نحن نعيد اكتشاف أفريقيا من طرق جديدة» .

ومنذ أيام وبعد غيبة طويلة لم نره فيها. رن جرس التليفون وكان منفعلا ثائرا ثورة عارمة .

– قل لى كيف يمكن أن أقابل جمال عبد الناصر؟ لا أحد فى هذا البلد يستطيع أن يفهمنى سواه .

وكانت هذه أمنية قديمة له.. وكان يقول لنا دائما: «إن عبد الناصر يتصرف وكأنه قرأ كتبى كلها.. لا أحد يمكن أن يعرف مصر.. كل شىء عن مصر.. هذا بغير قراءة كتبى» .

وسألته: هل هى الأمنية التقليدية ؟

– لا.. أريد أن أسافر.. منذ ثلاثة شهور وأنا أريد أن أسافر وقد أرسلت إليه خطابا ولكن لم يصلنى رد .

والتقينا.. وكانت معه صورة الخطاب الذى أرسله «أملى كبير أن ألقى العون منكم للتمكن من السفر إلى باريس وقضاء سنة كاملة فيها لطبع الكتاب «العرب فى الكونغو» .

وستحتاج تكملة البحث إلى ثلاثة أو أربعة أشهر أقضيها بين سجلات وزارة خارجية باريس ولندن وبركسل كما أن هناك بعض الكتب والمجلات التى لا توجد إلا فى مكتبات أوروبا العامة.. ومع اتصالى المستمر بمكتبات أوروبا العامة لم أستطع الحصول على كتاب مكتوب باللغة السويدية ومؤلفة «سليماف» سويدى وهذا الكتاب لم يستعمله أى مؤرخ بلچيكى أو أوروبى بحجة جهل اللغة السويدية ثم الاستعانة بمترجم سويدى. وقد طلبت أخيرا من بلچيكا إرسال مجموعة مجلة الكونغو وهى المجلة المهمة الوحيدة التى تنقصنى، فأجابنى صاحب المكتبة بأنها نادرة الوجود وأن ثمنها ثلاثة آلاف جنيه ولذا لابد من الاطلاع عليها فى مكتبة باريس أو بروكسل .

وجلسنا نفكر طويلا.. ثم قلت للدكتور محمد صبرى السوربونى: «سنجرب طريقا ربما يكون أسرع وأفعل» وسوف يثور كثيرا هذا الصباح.. كيف أفعل هذا.. هذه طريقة صحفية وليست علمية أكاديمية.. وهو لا يحمل حبا كثيرا للصحافة !



◇ قنطرة الذى كفر



فى تلك السنين كان الدكتور مصطفى مشرفة قد أخذ يدرس الاشتراكية وبدأ يتحول إليها.. بنفس العمق والصدق الذى يمارس به كل شىء، وبدلا من تحرير العمال الإنجليز قرر أن يعود ليشترك فى تحرير الفلاحين المصريين .

كتب قصة باللغة العامية وذهب إلى أحد الناشرين لكى ينشرها ولكنه رفضها.. وهذه قصة حدثت منذ أربعين عاما وستظل تحدث ولكنها بالنسبة له كانت نقطة تحول كبرى فى حياته .

كانت الكتابة باللغة العامية فى رأية رسالة وطنية لأنه كان ابن جيل ثورة ١٩١٩ وأحد شباب الجهاز السرى فيه.. ولأن اللغة العامية هى لغة الشعب، لغة «العامة» ولأنها اللغة التى تعبر عن مشاعر هؤلاء وأحاسيسهم وخلجات أنفسهم الدقيقة وهى لهذا لابد أن تكون لغة الأدب أو على الأقل أن يكتب بها أدب.. وذلك إذا ما كان هذا الأدب شعبيا مصريا صادقا خاصة إذا كان مصريا مائة فى المائة .

لأن المصـريين هـم سكان الأزقـة والحـارات وهم الذين لم يتعلموا لغة الضاد وهم الذين أحسوا وتألموا وثاروا.. تلك الثورة حملها على أكتافهم «عامة الشعب» هم الذين أطلقوا صيحة وهتاف «يحيا الوطن» وهم الذين اندفعت جموعهم كالطوفان.. فى المظاهرات.. وهم الذين تساقط شهداؤهم فى موت زؤام من أجل الاستقلال التام .

كان هذا أجمل ما فى حياته وأثمنه ولهذا كتبه باللغة التى لابد أن يكتب بها.... ورفض .

وبطبعه الحاد العنيف أقصى حدة وأقصى عنف اتخذ أغرب قرار يتخذه كاتب رفضت له قصة وهو أن يغادر مصر نهائيا. أن يترك البلد الذى أحبه بكل قدرته على الحب والذى قتل من أجله والذى تعرض للموت مرات عديدة من أجله.. وقرر أن يهجره لا هجرة جغرافية أو مؤقتة وإنما هجرة عقلية وروحية أن يقطع انتماءه العقلى والروحى بها وأن يبحث عن تراث آخر ولغة أخرى.. أرقى.. ينتمى إليها .

واختار أن يذهب إلى بريطانيا، أن يتعلم لغة السادة. وأن ينفذ حتى آخر سر من أسرارها. وأن يكتب بها كما يكتب أى انجليزى .

ولعله أراد أن يمسح الإهانة والذلة الفكرية بالخروج نهائيا من ثقافة الأمة الفاشلة المستعمرة وبالدخول منتصرا فى تراث الأمة المتفوقة المنتصرة... يومها لن يصر أحد على رفض شيء يكتبه وسوف يعبر عن نفسه ويحقق ذاته كما يشاء مادام لم يستطع أن يحقق للأمة التعيسة شخصيتها .

وفى بداية الخطة فاجأته أولى الصدمات والمآسى التى لم تنقطع حتى اليوم من حياته والتى يقابلها دائما بابتسامة «كسخافات» عارضة لا تؤخر شيئا أو تعرقله !

وأصيب بشلل الأطفال.. وبحالة شديدة منه ونام على ظهره بضع سنوات طويلة.. وتنقل بين مستشفيات لندن الفقيرة وخرج من المحنة يسير على عكازين يلازمانه دائما .

ولكنه وهو على سرير المرض وحيدا مهددا بالموت أو وهو يسعى متوكئا بين جامعات بريطانيا ومعاهدها لم يغفل عن الهدف.. ولم تنثن عزيمته حتى حققه. طبعا بعد كفاح وعناء طويل .

عرف اللغة والأدب والتراث الإنجليزى كما لا يعرفه كثيرون من الإنجليز أنفسهم وكما لا يعرفه مصرى قبله، وأصبح يكتب بالإنجليزية، ويكتب النثر والشعر والقصص والمسرحيات وقبلت

المجلات والصحف والإذاعه كل ما يكتب واتخذ اسما انجليزيا وتزوج انجليزية بل حصل على منصب فى إحدى الجامعات هناك لتدريس الأدب الإنجليزى، كل شىء تحقق وفقا للخطة .

وذات يوم جاءه عميد الجامعة التى كان يعمل بها وقال له :

– ماذا ينقصك.. لقد أصبحت منا تماما ولا شىء ينقصك هنا سوى أن يتم الشكل.. أن تطلب الجنسية الإنجليزية..

وسوف تحصل عليها بلاشك.. وأن تكمل الشكل القانونى وسوف يسهل هذا أن تصبح أستاذا كاملا .ولم يجد مانعا، وشكر العميد الذى كانت عنده الأوراق ليوقع وليصير انجليزيا شكلا وموضوعا .

وأخذ ينظر إلى الأوراق ثم شعر بتردد وتخاذل ثم استيقظ فى نفسه فجأة قلق عاصف وشعور هائل مخيف، ثم تجمدت يده وكأنها أصيبت بشلل ثم استبدت به هذه المشاعر ولم يسترح إلا حينما ألقى بالأوراق بعيدا .. وخرج ولم يدر أين يذهب ولكنه بغير سبب ذهب إلى أحد المبعوثين المصريين وكان يعرفه بعض الشىء وكان وسيما «طويل وأسمر وأنيق» كانت تعجب به الإنجليزيات ولكنه لا يقابل هذا الإعجاب بالمثل ووجده يرتدى «السموكنج» استعدادا للذهاب إلى حفلة ولكنه وجده لدهشته

يرتدى «جمديرى» ريفى تحت القميص وقال له: «ده وصية أبويا.. راجل فلاح بينزل الغيط لسه كل يوم بايديه ورجليه وقال لى يا ابنى ماتقلعش ده من على صدرك علشان ما تنساش أبوك وجدك ولا تنكر أصلك وفصلك» .

وذهب إلى البيت وظل يفكر طوال الليل وكانت بداية معركة هائلة بينه وبين نفسه انتهت بقرار آخر هو أنه لابد من الرجوع إلى مصر. لن يكون انجليزيا ولن يستطيع أن يكون شيئا آخر إلا مصريا.. وسوف يعود وسوف يكتب بالعامية وبالعربية. وأهم من هذا لن يهجر الشعب لأن الشعب ليس مسئولا.. سوف يقضى على الذين يمنعونه أن يحقق ذاته أو يعبر عنها .

فى تلك السنين كان قد أخذ يدرس الاشتراكية وبدأ يتحول إليها.. بنفس العمق والصدق الذى يمارس به كل شىء.. وبدلا من تحرير العمال الإنجليز قرر أن يعود ليشترك فى تحرير الفلاحين المصريين .

ثم عاد ...

وأول مرة نزل على شاطئ بورسعيد بعد غيبة طويلة، اقترب منه شيال مصرى وقال له :

– الحمد لله على السلامة يا بيه .

واحتضنه وأخذ يقبله ..

هيئ له أن الشيال يعرف قصته كلها وأنه مصر كلها .

واشتغل مدرسا فى الجامعة.. وكنا نذهب إليه فى البيت الأنيق الذى يسكنه والذى صنع أو صمم أثاثه والذى رسم بعض اللوحات التى تزين جدرانه.. والذى زرع حديقته. والذى اختار الكتب المنتقاة التى تملأ أرفف مكتبته.. وكان كل شىء عنده ملك الناس جميعا .

وكان يرتكز على عكازيه ويشعل سيجارته ويضىء وجهه بالابتسامة العذبة الساخرة ويبدأ يتكلم عن شكسبير.. عن بيرم التونسى، عن الماركسية، عن الفابية.. عن الوفد أو عن السراى.. ولكن كل أحاديثه لابد أن تنتهى بالشىء الذى لابد أن يحدث فى مصر والذى لابد أن نكون نحن فى مقدمته .

وكانت الحقائق التى يعلمها لنا ترسب عميقة فى أنفسنا والعواطف والمشاعر التى يوقظها فينا تهزها وأحيانا تزلزلها .

كان شيئا فريدا حتى بين القلة النادرة من الأساتذة الذين يعيشون مع الإنسان طوال حياته، وكان معظم الأساتذة مثل الأفلام السخيفة والمملة ينساهم الإنسان على باب الجامعة .

وذات يوم قال لى ولم أكن قد عرفت قصة حياته بعد :

– احنا عاوزين نكتب قصة طويلة عن مصر .

وقلت له متحمسا :

– أنا أكتب بالفعل.. قصة حتخلى كل واحد فى مصر ينكسف من نفسه، يشمئز، يقول ازاى أنا عايش وكل الغلب ده وكل الفقر ده عايش معايا.. لازم نعمل أزمة ضمير لكل اللى بيحكمونا.. ومستعبدين البلد .

وقال بهدوئه التقليدى :

– أولا دول ماعندهمش ضمير ولا عواطف وهم وصلوا للحكم علشان كده.. وبعدين لما توقظ ضمير الملك فاروق حيعمل إيه.. حيتنازل عن أرضه للفلاحين.. حيطرد الإنجليز.. حيعملها جمهورية.. احنا عاوزين نكتب قصة تخلى مصرى يحب نفسه ويحترم نفسه وبعدين ينتقم من اللى بيكرهوه ويحتقروه .

وبدأنا القصة وكان مرجعنا الأول ومصدر إلهامنا هو الحى الفقير الذى كنت أسكن غرفة صغيرة فيه مع أحد الزملاء والذى كنت أقوم له بمسح أدبى لسكانه وأحداثة. والذى كنت أحيانا أصحبها إليه ليشخصها بنفسه .

ولكن بعد قليل اتضح أن مصر التى فى نفسه أعمق وأخصب من أى مرجع آخر.. وحينما كان يتكلم عن ثورة ١٩١٩ كانت كل

الصور والشخصيات تخرج حية مضطرمة بالحياة وكأنها تحدث وتعيش الآن.. وقال لى ذات يوم :

- مهما حيكت مش ممكن تكون زى الحقيقة. شعب كامل بيغير نفسه. روحه من جوه. ويتولد من جديد. علشان كده أنا خايف.. خايف تنتهى لثلاثة أسطر فى كتاب تاريخ .

لازم ترسم «لوحة فرسكو» كبيرة جدا علشان كل واحد يعيش الثورة دى مرة تانية خصوصا أنتم.. جيلنا ابتدا وانتم حتكملوا.. تعرف أنا ساعات أقعد أبص فى وجوه الولاد فى المدرج.. وافتكر كل واحد صورة لواحد كنت اعرمه.. وساعات أقعد أتأمل وأقول يا ترى مين فى دول اللى حيعملها.. مين اللى حيضرب الرصاصة الأولانية .

ثم عرفت قصته كلها.. ومزجنا القصتين والعصرين.. لأن مصر واحدة ومستمرة.. واخترنا البطل.. أحد زملائه الذين تخلوا عن مصر بطريقة أخرى ويعمل بمنصب كبير.. وأعدنا «خلقه» ليكون رمزا لكل الذين فقدوا إيمانهم ذات يوم بهذا البلد أو هذا الشعب أو الذين تخلوا عنه أو الذين هجروه روحيا أو جغرافيا. عبروا قنطرة الذى كفر. وعادوا، لأن جذورا عمقها خمسة آلاف عام من المجد والهزيمة تشدهم وتعيدهم كالحملان

الضالة.. ليتابعوا الموكب .

وكانت أياما سعيدة حافلة، ولكن للأسف لم تستمر.. وقضت ضرورات الحياة أن نفترق قبل أن يتم العمل.. ولكنه عاش تراثا عزيزا علينا.. كلما تقابلنا فى المرات القليلة التى كنا نتقابل فيها حلمنا بأن نتم العمل .

وعدت من السفر لأجد لفة على مكتبى فتحتها فإذا بها لفرط الدهشة والسعادة بروفات قصة «قنطرة الذى كفر» كاملة وقد أتمها وأرسلها لإبداء الرأى، كانت مفاجأة غمرتنى بالفرح وبسيل من الذكريات. منذ رفضها الناشر إلى تلك اللحظة. ربما كانت أطول رحلة قطعتها قصة لكى تروى .



◇ حسن فتحى
المهندس الفنان



«رأيت أول قرية فى حياتى منذ ثلاثين عاما وكان منظرا بشعا ..»

ولقد كانت زيارة القرية منذ طفولتى حلما من أحلامى وكانت كل أمنيتى أن أرى وأن أعيش يوما فى قرية. وكان هذا مشكلة من مشاكل أسرتنا تتجدد كل صيف ولا تنتهى إلى حل أبدا ..

كان أبى إذا أردت أن تسميه إقطاعيا يرى الريف مجرد مصدر للدخل والإيراد ويشعر باشمئزاز كبير واحتقار أكبر للريف والفلاحين .

كان تصوره لخبث الفلاحين ولقذارة الريف ولضعة الحياة فيه تنفر نهائيا من الحياة فى الريف.. وكانت أمى مختلفة تماما وكانت قصصها وحواديتها.. وما ترويه لنا عن طيبة الفلاحين وعن مروءتهم وعن شهامتهم.. وعن جمال الطبيعة هناك تجعل القرية أرضا من أراضى الحور وجنة من قصص السندباد. وفى كل صيف كانت تثور المشكلة وتمتد .

هل نقضى الصيف فى الإسكندرية كما يريد أبى، أم نقضيه

فى العزبة كما تريد أمى؟ وكان أبى ينتصر دائما ولم نكن نرى الريف إلا من نافذة القطار .

وجاء اليوم الذى تحررت فيه من سلطة أبى.. وتخرجت وعينت مهندسا فى طلخا وذهبت لأرى عزبتنا وأحقق الحلم الذى عاش معى.. أن أعيش فى الريف، الذى أحبه لأن أمى تحبه .

ولم يستغرق الأمر وقتا طويلا حتى أحسست برعب وخوف واشمئزاز وكدت أعود هربا إلى مكان بعيد .

ويوم قررت أن أغادر وأهرب أحاط بى الفلاحون وأصروا على أن أقيم بينهم يوما آخر .

وأقمت.. وامتد اليوم بضعة أيام وأكلت معهم وشربت معهم وذهبت إلى الحقل معهم. وتسابقت على الحمير والخيل معهم.. وجلست فى الليل أستمع إلى غنائهم وأسمارهم.. ودخلت إلى بيوتهم ورأيت القاعة والفرن والزريبة والمضيفة والمصطبة، وأدركت لماذا تحب أمى الريف ولماذا يوقظ فيها كل حنانها ورحمتها وصفاء نفسها .

وبدأت أفكر فى أمر آخر.. كيف نبنى قرى أفضل؟ وكافحت لأعثر على قرية أبنيها وأقدم نموذجها.. واستطعت أن أجد مالكا أعطانى الفرصة وكلفنى أن أبنى عزبة له.. ومن هنا بدأت

تجربتى وخيبة أملى ..

نعم.. لقد وجدت الملاك يريدون أن يبنوا حظائر لفلاحيهم لا بيوتا لبشر وآدميين.. وهندسة بيت الإنسان تختلف عن هندسة الجراج أو الحظيرة تماما، كما تختلف هندسة العش عن هندسة معمل التفريخ. لقد رأيت إنسانية الفلاح وآمنت بها، لابد أن أبنى وفقها .

لكن من آمالنا الخائبة تولد دائما فلسفاتنا الدافعة. أليس كذلك ؟

– نعم ..

– لقد اكتشفت اكتشافى الأكبر خلال استعراضى ونفاذى إلى داخل بيوت الفلاحين وهو أن أحسن مهندس ريفى فى مصر هو الفلاح نفسه، ومن خلال آلاف السنين وملايين المساكن التى بناها والتى لاتزال وستظل دائما الحلول الوحيدة والصحيحة، وبدأت أدرس تراثنا المعمارى الشعبى والرسمى وقادتنى دراساتى حتى أسوان هل تدرى لماذا ؟.

– لماذا ؟

– إن أسوان هى مخزننا الثقافى والملاذ الذى لجأ إليه كل تراثنا هاربا من الغزو، وفى أسوان لا تزال حية كل تقاليدنا وكل أفكارنا الجوهرية عن الحياة والكون ..

وفى الحاميد بناءون لازالوا يحفظون تراثا معماريا يعيش منذ الأسرة الأولى ويتوارثونه على التوالى منذ أربعة آلاف عام.. وعشت هناك بين المحاميد ومعهم.. ودرست أساليبهم فى البناء وفى إقامة الأسقف والقباب ودرست طرزهم المعمارية وموادهم البنائية وأدركت كيف يمكن أن تتطور هذه الأساليب والطراز والمواد.. وعلى ضوء العلم الحديث أمنت معماريا بمصر الشعبية الريفية .

هل تدرى ما هو أعظم ما أهدته مصر للمدنية ؟

الطوبة.. اختراع الطوبة .

ولقد كان هذا بداية المدنية.. وانتقال الإنسان من حياة الغابة إلى الحضارة، ومن يومها والبناء هو فى مصر بلا منازع كالفلسفة بالنسبة للإغريق والقانون بالنسبة للرومان .

ولقد كان المعمارى فى مصر القديمة أحد أعمدة الحضارة والمدنية المصرية. وكانت المعرفة الكاملة لأسرار الكون والطبيعة شرطا لابد من توافره لكى يصبح مهندسا يسند إليه تصميم معبد أو قصر.. وبهذه المعرفة الكاملة وصل الثلاثة الكبار من المعماريين القدامى وهم: امحوتب معمار زوسر.. سنحوت معمار الدير البحرى.. وامنحتب بن هابو معمار الأقصر.. إلى مرتبة

القداسة كحملة أسرار الكون .

ولكن مصر لم تدع بالخالدة لمجرد بقاء أحجارها وأبنيتها.. ولكن للتراث الحى الذى تحمله هذه الأحجار والذى ستظل تحمله ..

* * *

وفى شقة حسن فتحى كانت مصر ممثلة بكل حضارتها.. الأثاث والستاتر والمصابيح العربية واللوحات والتماثيل الفرعونية.. والفازات الإغريقية وقطع الفن الشعبى الريفى على الجدران والمكاتب. ثم جو السلام والهدوء العميق المضطرم بالحياة .

– سنحت فرصتى الذهبية حينما أرادت مصلحة الآثار أن تنقل الفلاحين من قرية «القرنة» فى الأقصر وتبنى لهم قرية جديدة لتبعدهم عن مواقع الآثار .

ورأيت أن بناء قرية وفى الأقصر لحساب الدولة هى فرصة حياتى ومتعتها الكبرى وصببت روحى وكل نفسى فى المشروع .

إن بناء قرية فى مصر هو أدق عبء فنى تقع مسئوليته على بناء ...

أتدرى لماذا ؟

لأن القرية هى وحدة الحياة فى مصر سواء الحياة الاقتصادية أو الاجتماعية.. أو الثقافية.. أو الروحية.. والقرية المصرية لابد أن تعكس كل مصرية مصر.. وأن يجد فيها كل مصرى جذوره. سواء كان من الريف أو من المدينة. ولهذا أيضا لابد أن يبنيها الفلاحون وأن تبنى من تربة مصر وموادها.. وهذه كانت فلسفاتى .

إن أول بديهية هى ألا نبنى قرية ثم نسحب الفلاحين من أيديهم ونضعهم فيها. وهذا سوف يؤدى بنا إلى الحظيرة لا إلى القرية. وإذا أردنا أن نبنى فيجب أن نوقظ فى الفلاحين الرغبة فى البناء لكى يبنوا لأنفسهم بأنفسهم .

وإذا أردنا أن نبنى قرية فى مصر فيجب أن نستلهمها من تراث عمارتنا الشعبية وأن نعطيهم خير ما يمكن أن تعطيه العمارة الريفية بدلا من إعطائهم أحط ما تعطيه عمارة الغرب وبذلك يتجاوب البناء مع روح الفلاحين ومع البيئة بدلا من الطرز الأجنبية التى شاعت فيما سمى قرى نموذجية والتى ليست سوى بقع تجثم على ريفنا وعلى أرواحنا أيضا .

ولقد كانت تثيرنى دائما هذه القرى النموذجية.. فإن هذه الأبنية القبيحة التى لا علاقة لها بنا ليست مجرد تشويه معمارى

وثقافي ولكنها أيضا خيانة لتراثنا ولقوميتنا لأن بناء الريف المصرى يعنى بناء وبعث حياتنا وحضارتنا المصرية.. ولا نستطيع أن نبنى ونبعث حضارتنا على أسس غريبة وإنما على أسسنا العريقة.. متطورة على ضوء ما وصل إليه الفن والعلم الحديث .

إن الأسس يجب أن تكون نابعة من أرواحنا ولن يستقيم بناء قرانا وبناء حضارتنا الجديدة إلا هكذا.. هل تعرف لماذا يفر المصريون من بيوتهم.. ولماذا نعانى جميعا قلقا عصبيا فى بيوتنا ..؟

– لماذا ..؟

– لأن هندسة البيت المصرى فى المدينة لم تبن لمصريين ولم تلائم لتسكن إليها أرواح المصريين، ونحن ننقل هذا الوباء إلى الريف ببناء هذه القرى التى تسمى نموذجية ..

وفى القرية التى أزمعت بناءها جئت بمعمارى المحاميد من أسوان لكى يعلموا فلاحى القرية أصول الهندسة المعمارية الريفية.. وتعلم الفلاحون وعلى الأصح استيقظت فى أصابعهم عبقرية البناء المصرية المتوارثة واستطعنا أن نصل إلى بناء قرية مصرية خالصة.. بمواد مصرية خالصة على طرز مصرية

وعصرية خالصة ولفلاحين مصريين أصلاء.. ونجح المشروع..
ثم تجاوبت أصداؤه الدوائر الهندسية والفنية فى العالم كله .

وقالوا فى انجلترا إنه أجمل شىء معمارى فى مصر .

وقالوا فى أمريكا إنه أجمل ما سيبقى بعد الأهرام ..

وقالوا فى فرنسا وإسبانيا وهولندا وألمانيا والنمسا ..

مثل هذا أيضا.. إلا فى مصر أعلنت الحرب ضد المشروع .

– الحرب ؟.

– نعم الحرب.. لقد تألبت علينا كل قوى البيروقراطية وكل مهندسى الحظائر والجراجات، واتهمنا بأننا نخرف وأننا نبنى نزوات هندسية ومعمارية لاقرى وأننا نكلف خزانة الدولة ما لا تطيق، وهؤلاء الناس يعرفون دائما كيف ينتصرون ولهذا وجدتنى فجأة مبعدا عن القرية وتركت البيوت والفلاحين وكل أحلامى وأمالى نصف أطلال .

وأسهم حسن فتحى حزينا مع موسيقى برامز وارتسمت تجاعيد أليمة على وجهه الرقيق .

– هل فشلت ؟

– مستحيل.. لقد جئت لكى أحتل مكانى القديم فى كلية الفنون الجميلة أستاذا للعمارة وبدأت أبشر بين الطلبة.. وثق..

ثق تماما أن هؤلاء سيبنون مصر كما أحلم بها وكما يجب أن تبنى وسيثأرون لى ولمصر .

* * *

وفى طريق عودتى وأنا أعبر كوبرى الزمالك تطلعت إلى حقول أمبابة وقراها وتصورت حقول مصر وريف مصر .. لو بنى حسن فتحى كل الأربعة آلاف قرية ستكون ملحمة بناء خالدة .

إن حسن فتحى شاعر ينظم قصائده وملاحمة بالطوب .




◇ حكيم ولادة



المرأة تحب الشـاعـر الذى يمجـدها والفنان الذى يتـغنى بجمـالها، ولكن فى قلب كل امرأة ركن مضىء لرجل ثالث يقف إلى جانبها وفى أمجد لحظات حياتها.. وهو طبيب الولادة .

وأعظم طبيب ولادة معاصر فى العالم كما تقول المجامع العلمية الدولية هو طبيبنا المصرى والملاك الحارس لنساء مصر ولبوابات الحياة المقدسة فى مصر. نجيب محفوظ .

ولقد وهب نجيب محفوظ حياته لآلام المرأة منذ رأى أول امرأة تلد وتدفع حياتها ثمنا لإنجاب ابن .

وإن كان هناك من يقول إنه ولد ليكون طبيب نساء لأنه خرج إلى النور هو نفسه بعد ولادة عسرة كادت تذهب فيها أمه.. حرم «ميخائيل افندى».. الموظف بالمنصورة. ويومها وقف ميخائيل افندى والدكتور منصور والحكيمة جيهان لا يملكون سوى أن يصلوا ليلطف الله بالأم والمولود. ولطف الله.. وخرج الموجود.. ليشب وليغدو أستاذ الولادات العسرة فى العالم كله !

ولكن نجيب محفوظ يبتسم. إنه لم يوهب لتوليد النساء

بمجرد ولادته ولكن بعد هذا بعشرين عاما ..

وفى الإسكندرية.. «كنت أعمل فى مكافحة الكوليرا فتعرفت بزميل فاضل هو وكيل المستشفى الأميرى ولما توطدت روابط المعرفة بينى وبينه طلبنى ذات يوم لمصاحبته إلى حالة ولادة متعسرة، وكانت المريضة شابة من أصل شركسى ومن عائلة كبيرة معروفة بمدينة الإسكندرية. وكانت مهمتى أن أقوم بإعطاء البنج، فأما الولادة فيتولاها هو مع أحد مساعديه من أطباء المستشفى، وقد حاول كل منهما توليدها «بالجفت» فلم تنجح هذه المحاولات فاتفقا على عمل التحويل القدمى للجنين لكنهما لم يستطيعا الوصول إلى القدم، وأخيرا نجحا فى إخراج القدم وتخليص الجسم إلى الأكتاف، ولكن الرأس لم يخرج فأخذا يشتدان فى الجذب حتى انفصل الجسم عن الرأس الذى بقى داخل الرحم، وذهبت جهودهما فى إخراج الراس أدراج الرياح فأشرت عليهما بأن يستدعيا أحد الأطباء الأخصائيين فى الولادة بالمدينة فأعلمانى بأنه لا يوجد فى الإسكندرية طبيب واحد مصرى أو أجنبى مختص بالتوليد. ولم يأت الصباح على هذه الشابة البائسة إلا وقد وافاها القضاء المحتوم والرأس لا يزال داخل الرحم» !

«وقد تركت هذه الحالة فى نفسى أثرا عميقا جدا حتى أنى لم أستطع النوم ليلتين متواليتين ولم يهدأ لى بال إلا فى الليلة الثالثة التى أخذت فيها على نفسى عهدا أن أكرس حياتى لدراسة الولادة وخدمة المتعسرات فيها .

وبر الطبيب الشاب بوعده.. وظل عشرين عاما طويلة يخرج كل ليلة بلا استثناء ليبحث عن ولادة عسرة فى أحياء الفقراء لكى يجنبها مصير الشركسية التعسة.. واستولت عليه عاطفته ولم تعد الولادة مهنة ولا فنا ولكن رسالة وتحقيق حياة. ومن أجلها وضع الكتب العربية الوحيدة فى فى الولادة والتمريض حتى ذلك الحين. ومن أجلها أشرف على إعداد برامج مدرسة المولدات والحكيمات والممرضات، ومن أجلها أنشأ أول قسم للولادة وأمراض النساء فى القصر العينى.. وأنشأ أول مركز لرعاية الحوامل فى مصر وأجرى أغرب وأقسى عمليات الولادة وأقام أعجب متحف فى العالم للولادة وأمراض النساء.. ثم اختتم جهوده بكتابة كتاب قال عنه عميد كلية طب النساء ببريطانيا السير «ايرولى هولاند»: «إن كتابك بدون شك أعظم كتاب ظهر فى أمراض النساء والولادة إلى اليوم! وهو يفوق بمراحل بعيدة أى كتاب ظهر فى المملكة البريطانية أو فى ألمانيا

أو فى الولايات المتحدة: إنه لأثر خالد لحياتك المليئة بالبحوث العلمية الفذة والتعمق العلمى وفى كتابك هذا يتمثل الفن الراقى والعلم الغزير والروح العلمية السامية» .

ويبدأ يوم الطبيب الكبير تماما كما كان يبدأ يوم التلميذ المجد النشيط: فى الساعة الخامسة صباحا فى الصيف وفى الساعة السادسة صباحا فى الشتاء وهو يبدأ دائما بصلاة لسان فرانسيس الأسيس يرددها باللغة الإنجليزية قائلا :

«يا إلهى دعنى أكون دائما رسول سلام..»

«وحيث يكون هناك كراهية دعنى أبذر الحب..»

«وحيث يكون هناك ألم أبذر الشفاء..»

«وحيث يكون شك أبذر الإيمان..»

«وحيث يكون هناك يأس أبذر الأمل»

«وحيث يكون هناك ظلام أبذر النور»

«وحيث يكون هناك حزن أبذر السعاده»

«أى إلهى العظيم: فلتكن إرادتك»

«يا إلهى إنى لا أبحث عن العزاء بقدر ما أعزى الناس.» .

«وإنى لا أبحث عمن يفهمنى بقدر ما أفهم أنا الناس»

لأنه «بالعطاء.. نأخذ» .

«وبالغفران.. يغفر لنا» .

وهو يردد هذه الصلاة أيضا قبل كل عملية.. فينتحى دائما ركنا صغيرا قبل أن يلبس قفازه ويرددها، وإليها ينسب سر نجاحه وسر لمسة «محفوظ» الساحرة، وهى لمسه أصبحت أسطورة طبية وغير طبية أيضا .

ولقد رآه صبى صغير ذات يوم ينقذ حياة أمه فكتب بعدئذ: عندما حضر لمنزلنا مع اثنين من مساعديه ليجرى جراحة لوالدتى وكانت حالتها تنذر بالخطر وكنت متعلقا بها تعلقا شديدا فطفح قلبى بحبه وعرفان جميله وآليت على نفسى أن أنهج نهجه إذا تمثلت فيه رجل آمالى.. ولم أكن أعلم وقتها أن هذه ليست سوى أولى أياديه على وأنه سوف يطوق عنقى بمعروف بعد معروف وجميل فوق جميل» .

وأصبح هذا الصبى من أنبغ تلاميذه ومن أنبغ أطباء النساء فى مصر واسمه: «إبراهيم مجدى»

وليس هناك متعة فى حياته مثل إجراء عملية واستقبال إنسان جديد.. وكل وافد خرج إلى النور على يديه مسجل باسمه وظروف ولادته ومغامرة خروجه فى يومياته، ومنهم من أصبح صديقا أو زميلا أو خصما له، ولكنهم جميعا تربطهم رابطة

واحدة.. فقد تلقفتهم نفس الأصابع إلى الحياة.. ولكن شعوره المتكرر دائما أمام كل عملية ولادة يجريها هو: «ازدياد احترامى للمرأة التى تتحمل آلام ومتاعب لايقدرها ولا يفهمها الرجال فى سبيل بقاء النوع. حقا أن المرأة جديرة بالإعجاب لأن فى جوفها يكمن الخلود» .

وأمام منضدة العمليات تأكد إيمانه بالنوع الإنسانى .

«لقد دبرت الطبيعة أى الخالق - جل شأنه - أبرع وأحكم وسائلها لحفظ النوع، ولو بحثت عن عدد الذكور والإناث فى أى بلد أو مديرية أو قطر أو قارة لوجدت أن عدد الذكور دائما وبلا استثناء هو ١٠٥ للذكور و ١٠٠ للإناث.. وهذا ينطبق على العالم أجمع بلا استثناء مما يؤكد لى أن هناك قوة تسيطر على العالم وتديره» .

- ولكن الحروب التى تستهلك الرجال وتترك عشرة نساء فى أوروبا أمام رجل واحد ؟

- إن الطبيعة أى الخالق جل شأنه يفعل ما يؤدى إلى تعريض الخسارة من الرجال بعد الحروب، وقد أجريت أنا نفسى إحصاءات على عدد الذكور والإناث فى العائلات الأجنبية والمصرية والذين قمت بتوليدهم بعد الحرب فى مستشفى

الأنجلو أميركان من جهة أخرى، فوجدت أن عدد الذكور كان يزيد زيادرة واضحة فى العائلات التى تنتسب إلى الرجال الذين دخلوا الحرب.. وأنا لست الوحيد فى الوصول إلى هذه النتيجة فقد أيدتها الإحصاءات الدولية وأصبحت مؤكدة ومعترفا بها.. وطبعا لا يتم ذلك فى سنة واحدة بل هو يستغرق عدة سنوات حتى يتم التوافق بين الجنسين» .

وأمام مائدة العمليات تأكد إيمانه بالحب.. وهو إيمان حازم جازم لأن «عائلة بلاحب هى عائلة فاشلة إن آجلا أو عاجلا والحب هو الأساس الذى لن تستقيم بدونه حياة أو تبنى على غيره أسرة» .

ولكن أغرب ما أكدت منضدة العمليات إيمانه به هو – المعجزة – فإن العالم العبقرى الذى قضى حياته فى المعامل والتجارب والعمليات يؤمن بالمعجزة .

«إننى أومن بالمعجزات وفى كل يوم أراها كطبيب ويحار عقلى ولا أملك إلا أن أقف مبهوتا مذهولا، وفى المواقف الحرجة الكثيرة لا أملك سوى أن أصلى.. وأقول لك لولا ما يشعر به الطبيب من الغبطة عند شفاء مريض تحرجت حالته.. فى كفاح دائم مستمر مع قوى خطرة مثبطة مجهولة غامضة، لولا ذلك لما

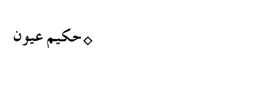
كانت مهنة الطب مما يغبط عليه الطبيب، ونحن أحيانا نستهلك كل قوانا على التفكير والتنفيذ.. ولتتصور موقفى مثلا حينما يحتم على أن أضحى بأحد اثنين حياتهما هما كل رسالة حياتى «الأم أو الوليد» .

ولكن كل مشاقة ومتاعبه ومواقفة العنيفة الحرجة يعوضها، ويمسحها شيء واحد هو: «ابتسامة السعادة التى أشاهدها فى وجوة السيدات عند رؤيتهن المولود لأول مرة، إنها سعادة لا يمكن أن تعدلها سعادة أخرى فى الوجود، هى تنسى السيدة كل ما شعرت به من آلام وما مرت به من عناء عصيب وكذلك تفعل بالطبيب» .

والساعة الآن الواحدة ولقد استغرق الحديث الوقت الذى يمنحه عادة لقراءة البحوث والمجلات العلمية فى شرفة نادى سبورتنج من الساعة الحادية عشرة إلى الساعة الواحدة.. وحينما تلتقى عقارب الساعة لابد أن يجلس طبيبنا العظيم إلى المائدة مع أسرته ليتناول الغذاء، وحينما ينتهى من تناول الغذاء لابد أن يستريح فى الفراش ساعة أخرى ثم يمضى ساعة ونصف الساعة فى قراءه الكتب الطبية ثم يتناول الشاى فى الساعة الرابعة والنصف ثم يذهب للعيادة فى الساعة الخامسة .

نفس العيادة منذ خمسين عاما.. بنفس النظام الذى أنجب لمصر أعظم طبيب نساء فى العالم .




◇حكيم عيون



الطب.. قصص بوليسية «كان الدكتور محمد صبحى أشهر أطباء العيون فى مصر» .

ها .. هاها .. قصة حياتى.. حيكم عيون ككل الحكما .. وتاريخ حياتى أيضا وتاريخ ميلادى.. ها ها مستحيل.. حكما العيون لا عمر لهم.. ماذا قال الشاعر :

«إن العيون التى فى طرفها حور».. ها ها ..

- كيف أصبحت حكيما ؟

- هاها بالصدفة.. مجرد الصدفة.. لقد أردت أن أكون محاميا .. ولكن لم أنفع.. هاها.. وأردت أن أكون مهندسا وسقطت أيضا.. جداول اللوغاريتمات وحساب المثلثات أخافتنى. ولم يبق سوى الطب وأن أكون طبيبا.. طبيب رغم أنفه هاها .

- ولا تزال ؟

- لا.. الحب من أو نظرة يزول دائما والحب بعد الزواج يدوم دائما.. هاها.. أليس كذلك؟ هكذا أحببت الطب بعد عشرة طويلة .

- حب ضرورة ومصلحة .

- لا.. لا.. دخلت الكلية وأنا لا أعرف حرفا واحدا من الإنجليزية وكنت من خريجي القسم الفرنسي.. وكان التدريس باللغة الإنجليزية. وظللت شهورا أسمع المحاضرات ولا أفهم وبدأت أتعلم الإنجليزية وأخذت أذاكر الطب كمجرد رغبة في التفوق هاها.. قصة لعلم النفس.. أليس كذلك ؟

والغريب تفوقت.. وكنت من الثلاثة الأول.. أنا والمنياوي والمرحوم أنيس أنسي. وطالبنا أن نذهب إلى أوروبا في بعثة ورفض طلبنا، وانصب علينا اضطهاد الأساتذة الإنجليز ثم بدأوا يشردوننا .

- يشردونكم لماذ ؟

- إنجليز.. هاها.. على أيامنا كان الإنجليز انجليز. وكنت أنا والمنياوي من أنصار مصطفى كامل والحزب الوطني فرفضونا رفضا باتا .

وذهبنا إلى سعد باشا زغلول وزير المعارف واستطاع سعد زغلول أن يرغم الإنجليز على إيفادنا في بعثة إلى انجلترا. وذهبنا إلى عميد الكلية «كيتنج» وسألني: أي فرع من الطب تريد أن تتخصص فيه، وكمعظم الأطباء قلت على الفور:

- الجراحة ...

وزغدني سكرتيره وقال: جراحة.. جراحة.. كلكم جراحة، خذ طب العيون .

وقلت: عيون.. هاها ..

- وسعدت طبعا ؟

- طبعا.. طبعا.. في انجلترا تعلمت أهم شيئين في حياتي حتى الآن: حب الوطن.. وكره الإنجليز .

- كره الإنجليز ؟

- في الليلة الأولى نمت من غير عشاء لأنني تأخرت عن موعد العشاء بضع دقائق.. وبعد بضعة أسابيع كدت أعود إلى مصر هاربا لأنني ضقت بآداب المائدة.. هاها.. الشوكة والملعقة.. هاها.. إن استعمال أدوات المائدة عند الإنجليز عملية معقدة.. تختلف عن أي بلد آخر .

شوكة باليمين وسكينة باليسار دائما.. في فرنسا تستطيع أن تضع السكينة وتستعمل الشوكة وحدها ولكن في بريطانيا هذه عيب الشوم.. هاها.. هاها .

مرة كنا نأكل على المائدة وكان معنا زميل مصري.. فسحب برطمان المربى وأخذ يأكل منه.. وكانت مصيبة كبرى.. هاها..

وأنقذنا الموقف بصعوبة. ولكن هذا غير المسألة التى كنت أريد أن أحدثكم عنها.. الطامة الكبرى .

- ماذا كانت ؟

- التعصب.. تعصب الإنجليز.. مررت على عدة فنادق فكانوا يرفضون نزولى ويقولون لانأخذ مصريين أو هنودا وكان هذا يجعل الدم يغلى فى عروقى، ثم وجدت فندقا.. وبعد بضعة أيام اكتشفوا أننى مصرى، وعدت لأجد حقيبتى على الباب.. على الباب.. فاهم على الباب.. لم يفكروا فى أن يشرحوا لى شيئا.. ومن يومها كرهت الإنجليز وتعصبت للألمان.. وأنا متعصب للألمان ولا أزال.. «جرما نوفيل... جرمانوفيل» وأنت تعرف أنا لا أتكلم الإنجليزية إلا للضرورة القصوى.. وحتى فى الجامعة كنت أدرس بالعربية كلما أمكن.. خذ بالك هناك من يتكلمون ثلاث كلمات عربية وخمس كلمات إنجليزية.. هؤلاء أنا أحتقرهم لأن لغتنا خصبة قوية عظيمة.. وأنا لا أحب الأدب والشعر العربى ولا أقرؤهما كثيرا.. ولكن أتذوقهما طبعا.. لغتى المفضلة هى لغة العيون.. هاها.. ماذا قال شوقى :

وتعطلت لغة الكلام...

وخاطبت عيناى فى لغة الهوى عيناك

- كيف أحببت العلم ؟

- آه.. آه.. هذا شيء آخر.. لقد كنت في مصر مجرد صنايعي ولكن هناك دخلت معبدا كبيرا هو معبد العلم... صنايعي لي أساتذة. وفي اللغة العربية يقولون «المعلم».. وليس هناك كلمة أجمل منها.. المعلم الذي يعلمك حتى تصبح معلما. وفي بريطانيا أصبح لي معلم في طب العيون، وبدأت أكتشف الطب، وأجمل ما في الطب وهو العين.. ليست العين إياها.. هاها.. سحر العين وسواد العين.. وكحل العين.. ولما تبقى العين في العين.. هاها .

إنها أعجوبة العجائب .

انظر.. هذه خريطة العين من الداخل.. تأمل.. ألا تحس بتناسق ووحدة.. وتكامل عمل فني.. حقيقة.. لا خيالا، ألا تصدق ؟

- أصدق ..

- أنا غاوي فنون.. موسيقى وأدب وسجاد.. وهي هواية متعبة.. هاها.. سجاد كثير مزيف طبعا.. الهواية التي لا تغش فيها أبدا هي الموسيقى.. وأنا سميع قديم... قديم جدا.. الله يرحم الشيخ سلامة والشيخ سيد درويش، طبعا لا أوافق على

موسيقى عبد الوهاب وغنائه.. عبد الوهاب صاحبى.. هاها.. ولكنى لا أوافق .

الموسيقى الغربية شىء والشرقية شىء آخر.. فمثلا أنا أسمع السيمفونيات وأسمع ألحان زكريا أحمد وأعجب بالاثنين ولكن تدخل زكريا أحمد فى موزار غير معقول، خلطة بائخة. هاها.. أليس كذلك ؟

– كذلك .

– ولكن طبعا هوايتى وتسليتى الكبرى هى الطب.. قصص غرامية؟ ماذا تكون هذه القصص. قصص بوليسية؟ أين تقف هذه القصص؟ مغامرات عجائب؟.. ما قيمتها بجوار أسرار جسم الإنسان .

الطب تسلية مدهشة.. وتسليتى هى كتب الطب.. وهى تقودنى إلى عوالم مجهولة وآفاق شاسعة واسعة.. كل يوم شىء جديد وحقيقة لم تكن معروفة وانتصار على مرض أو ميكروب واختراع مصل أو دواء. دنيا كاملة. وجوهرتها ودرتها هى، طبعا، العين .

هل تدرى أن هذه الكرة الصغيرة هى وحدها قارة عظمى ملأى بالعجائب أسبح أنا فيها تماما ككولمبس أو ماجلان.. بحار

وأنهار وجبال ووديان.. وسر أكبر لم يكتشفه أحد، تراه أمامك وتحسه وتلمسه ولكنك لا تدرك كنهه أبدا !!

لقد وقعت فى غرام العين صحيح.. والله صحيح.. سبتنى العين كطبيب.. وكغير طبيب .

لقد اشتركت فى مسابقة جمال عيون ذات مرة، وكانت ترشيحاتى طبعا هى الفائزة.. وأنا أنظر إلى الشخص وإلى الرجل أو المرأة.. والمرأة أفضل طبعا فأستطيع أن أقرأ من العيون كل شىء فى داخله.. العين هى أكبر حاسة معبرة فى الإنسان.. وليس هناك عين فى العالم مثل الأخرى مطلقا ولذلك كل عين عليها حارس.. العين عليها حارس.. هاها .

– وإلى أين قادك هذا الغرام ؟

– إلى كل مكان.. حيثما كان هناك أستاذ كبير فى طب العيون ذهبت إليه وجلست تحت قدميه من الأستاذ الكبير فوكس.. أبو الرمد وطب العيون فى فيينا.. إلى الأستاذ باراكير أعظم جراح عيون فى برشلونة.. وكل هذه الصور التى تراها على جدران الغرفة أساتذتى. وأنا أحرص دائما على أن أحصل من كل أستاذ على صورة وإهداء .

ولقد عدت إلى مصر.. إلى بلد العميان كما يقولون.. وبدأت

أمارس طب العيون.. لقد كانت كل حالة وكل عملية بالنسبة لى مغامرة.. وكان شفاء مريض أو نجاح عملية ميئوس منها يمنحنى نفس المتعة التى تحصل عليها من كتابة مقال أو يحصل عليه زميلك الرسام من شلفطة خلقة كريمة .

انظر.. هذا آخر كتاب وصلنى من فرنسا عن طب العيون.. إننى أصحبه معى ومجلة «الكونيسير» وهذه الكتالوجات عن السجاد .

إن هذه الثلاثة لا تختلف عندى فى متعتها.. وربما كان هذا هو السر فى أننى مازلت أمارس عملى وعملياتى بنفس المتعة التى كنت أعمل بها وأنا طبيب صغير.. إن من أسرار السعادة وطول العمر أن يكون عملك هو أيضا هوايتك وغرامك .

وشعرت يوما بنشوة عجيبة حينما أجريت عملية ترقيع قرنية لفتاة حسناء فقدت بصرها وأملها فى الحياة واستعادت كل شىء بعد عملية دقيقة.. لقد كانت رؤيتها وهى تفتح عينيها وتسترد عالما جديدا بأكمله تساوى كل متع الحياة الدنيا.. هاها ..

وتصور أن لى خمسين عاما الآن. حولى خمسين عاما أخرج من مغامرة كهذه إلى مغامرة.. أليس هذا عظيما .

– خمسين عاما ؟

– هاها.. هاها.. استدرجتمونى.. آه خمسين عاما، وعمرى الآن بالضبط – وأمرى لله – سبعون عاما. ولكننى أعمل يوميا ست ساعات على الأقل. وأجرى عملياتى بنفسى ومعظم العمليات التى تصل إلى هى المعقدة التى رفضها السوق.. هاها..

– وما السر ؟!

– النوم ظهرا.. هاها.. هل تستغرب.. إننى أنام ظهرا الآن وآكل بحساب ولا أشرب إلا نادرا ولا أدخن إلا نادرا.. ولكن.. قبل هذا وذاك وفوق هذا وذاك.. أحب الحياة بنفس حماسكم.. إذا كنتم تحبون الحياة.. هاها. هل تحبونها ؟

– بعد قصتك هذه لابد .



◇ حديث مع الملكة نازلى



فى فبراير سنة ١٩٢٢ جاءت إلى مصر الصحفية والمؤلفة الأمريكية جريس هوستون واستطاعت بعد جهد كبير أن تقابل «الملكة نازلى» ملكة مصر فى ذلك الحين وأدلت إليها الملكة بحديث أحدث ضجة بعد نشره وكان من آثاره أن الملكة نازلى لم تقابل صحفيا بعده فكان أول وآخر حديث صحفى لها ..

قرأت فى طفولتى قصة العصفور والقفص الذهبى ولكننى لم أر عصفورا حقا داخل قفص من ذهب إلا حينما قابلت الملكة نازلى ملكة مصر الجميلة، والملكة نازلى نموذج حى لهذه الأسطورة، بل هى مثل بارز لمأساة المرأة أو بالأحرى الملكة الشرقية فى عصرنا الحديث، ولقد آمنت بعدما عرفت قصتها بالمثل القائل: «مصدوعة تلك الرأس التى تحمل تاجا» .

وقد تفضلت جلالتها فأذنت لى بأن أختلس نظرة إلى السجن الفخم الذى تقبع فيه وإلى العزلة الوثيرة التى تحيا فيها فى قصر عابدين، أو على الأصح مقاطعة عابدين فهو أفخم قصر رأيته فى حياتى ..

ولقد تم هذا فى نفس الوقت الذى كانت مصر تتحول فيه بواسطة تصريح بريطانى إلى مملكة مستقلة ذات سيادة، وكانت نازلى تتحول فيه أيضا إلى ملكة صاحبة جلالة بجوار زوجها الملك فؤاد الأول .

ولقد خرجت من عند الملكة نازلى وأنا أومن بأن هذه الملكة الصريحة الطموح سيدة ذات روح متحررة، وأنها ستنتهز أول فرصة سانحة لكى تحطم كل القيود التى تضعها التقاليد حول عنقها وتهرب من السجن الشامخ الذى تعيش فيه .

ولقد نشأت الملكة نازلى وعاشت حتى زواجها فى بيئة عصرية متحررة، وكانت أمها من صديقات صفية هانم زغلول الحميمات، كما كانت من مؤيدات حركة المرأة الجديدة وزعيماتها. ولكنها ككل الزعيمات الوطنيات فى مصر نفضت يدها من نازلى وأمها بعد زواج نازلى، وذلك لأنها كانت تؤمن بأن الملك فؤاد صنيعة البريطانيين وأنه لا يحب المصريين .

ولم تفقد الملكة نازلى أملها فى أن تحصل على حريتها وكما قالت لى لا تريد أن تكون أقل استمتاعا بالحرية من ابنة زوجها الأميرة فوقية، فهى فى مثل سنها ولكنها تتمتع بحرية واسعة وتسافر إلى أوروبا كل عام وتحضر الحفلات سافرة الوجه،

وذلك فى الوقت الذى لا تقابل فيه الملكة نازلى أحدا إلا أقاربها وبعض صديقاتها، وأقصى رحلة يسمح لها بها هى الرحلة من قصر عابدين فى القاهرة إلى قصر رأس التين فى الإسكندرية وهى كما قالت جلالتها :

«مدينة رطبة جدا لا أحبها»

ولقد قيل لى فى السراى - حينما طلبت المقابلة - إن جلالتها تتمتع بحرية تامة وإنها تستقبل من تريد.. ولكن إحدى صديقاتها أكدت لى أنها لا تخرج من السراى مطلقا وأنها أيضا لا تقابل إلا عددا معينا من السيدات فقط لا الآنسات، وأن هؤلاء يدرجن أسماءهن فى كشف تعده كبيرة الوصيفات مدام قطاوى باشا وتعرضه على الملك الذى يشطب منه كما يشاء ثم يعيده إليها، ولقد تحققت بنفسى من هذا كله بل ووجدت أن مقابلة الملكة نازلى أصعب بكثير من مقابلة أية ملكة أخرى.. ووجدت أيضا أننى لن أصل إليها إلا بالطريقة التى نصل بها إلى أى شىء آخر : «الواسطة» .

وقد توسطت لى «ليدى كونجريف» زوجة القائد العام البريطانى وأخبرتنى أن على أن أكتب اسمى أولا فى الكتاب الملكى.. سجل التشريفات.. فيحدد لى موعد بعد ذلك .

وذهبت مع «ليدى كونجريف» فى سيارة يقودها سائق انجليزى بجانبه خادم أسود فى ثياب ذهبية مزركشة، وحين وصلنا قصر عابدين اجتزنا عددا من البوابات الضخمة حتى وصلنا جناح الملكة ووجدنا على الباب عشرة حراس عمالقة فى ثياب أنيقة ومدججين بالسلاح.. لحراسة المدخل.. ثم فتح لنا الباب أغا طويل وأغلقه على الفور ووجدنا أنفسنا فى ردهة فاخرة إلى حد البذخ وتوسط الردهة ثلاث سيدات جميلات وتقدمت أولاهن بابتسامة رقيقة خلابة وقادتنا إلى منضدة من الرخام الفاخر، وقدمت لنا قلما من الفضة لنكتب اسمينا فى الكتاب، وكتبت اسمى وكتبت ليدى كونجريف اسمها، وقالت لى إن هذا هو كل ما علينا أن نفعل.. ولم يتحدد اسمى.. وبعد سعى متواصل من الدكتور هاويل المفوض الأمريكى فى القاهرة وفى اليوم المحدد توجهت إلى القصر أنا ومسز هاويل وبعد أن مررنا بكل البوابات والطقوس السابقة صعدنا السلم الفخم إلى غرفة استقبال الملكة.. وقد اجتزنا فى طريقنا بوابة أنيقة محلاة بنقوش الذهب والفضة ووقف عليها اثنان من الأغوات فى ثياب مزركشة تبعث على الهيبة والإعجاب، ثم وجدنا أنفسنا فى غرفة واسعة بها ما يقرب من عشر وصيفات ظهرن فى جمالهن

وأناقتهن وسحرهن كالحوريات، ومن هذه الغرفة دلفنا إلى غرفة أخرى كان بها سيدة واحدة مهيبة الطلعة تبدو بشعرها البلاتيني وثوبها الباريسى الأنيق مثلا للجاذبية والأناقة والسحر الفرنسي.. وكانت هذه هى مدام جوزيف أصلان قطاوى «باشا» كبيرة الوصيفات والتى أخذت فى رقة ولباقة أخاذة تفهمنا طقوس ومراسيم مقابلة ملكات الشرق: وبينما كانت تتحدث كنت أجول ببصرى فى الروعة والفخامة والجو الخيالي المحيط بها وأتصور كيف يغرق ملوك الشرق وملكاته أنفسهم فى الترف والنعيم ناسين الحياة والشعوب .

وسارت مدام قطاوى وسرنا وراءها إلى الملكة.. وكانت جلالتها واقفة فى غرفة فسيحة واسعة تحت صورة ضخمة لحميها الخديو إسماعيل وقد ارتدت ثوبا من القطيفة الخضراء الغامقة من صنع باريس وغطت أصابعها بمجموعة من الخواتم الماسية البراقة وتدلى من أذنيها قرط تعلق به ماسة فى حجم البندقة.. وكان شعرها مقصوصا وفق «الموضة» الباريسية ولكنها وضعت فى مؤخرته مشطا كبيرا على الطريقة الإسبانية.. كان لون بشرتها أبيض ناعما.. وشفتاها رقيقتين وعيناها مكحلتين على الطريقة الشرقية التى تضفى على عيون المصريات

سحرا وبدت جلالتها بسيطة جذابة كماسة نادرة من التى كانت تتحلى بها.... ولم تكد عينى تقع على هذا الجمال الساحر الخلاب حتى أخذت ولم أملك إلا أن أقول: إننى أدرك الآن يا صاحبة الجلالة.. لماذا يصر الملك أن يحجبك عن لقاء الناس والصحفيين .

وضحكت جلالتها ضحكة عالية مرحة رفعت على الفور الكلفة بيننا وقالت فى أسلوب رقيق: آه يا سيدتى.. ولكن يجب ألا تقولى هذا للملك، بل يجب أن تؤكدى له أننى أستطيع الخروج ومقابلة الناس فى أمان فهو غيور.. غيور جدا.. جدا .

وضحكت.. وقلت لها: له حق وعلى كل فإن الرجال جميعا فى هذا سواء .

واستطردت جلالتها تقول وعلى شفتيها ابتسامتها المرحة: لا.. ليس إلى هذا الحد.. وبهذه المناسبة أخبرينى هل اخترعوا حقا فى أمريكا تليفونا يرى فيه المتكلمون بعضهم بعض .

وقلت لها: لا أدرى.. ولكن.. لماذا ؟

واستغرقت جلالتها فى الضحك ثم قالت: جاءنى الملك منذ بضعة أيام قلقا مهموما.. وقال لى.. لقد اخترعوا فى أمريكا تليفونا يرى فيه المتكلمون بعضهم بعضا، وإنه سيعمم فى العالم

قريبا. وهذه المسألة تشغلة إذ لا يدرى هل يسمح بإدخاله فى القصر أم يرفع التليفونات كلها من هنا.. تصورى إنه غيور إلى درجة لا تطاق .

ولم يكن فى حديث الملكة أية مرارة أو ألم بل كانت فى مرحها - حسناء فى الثانية والعشرين من عمرها.. قبلت مصيرها وأصبحت تجد متعة فى وجودها وسط أولادها وجواهرها ولكن ..

وقلت لها: كان يجب أن تتفقا قبل الزواج على حدود الغيرة وقيودها كما نفعل عندنا فى أمريكا .

وضحكت جلالتها ضحكة مرحة صافية على طريقتها وقالت: يبدو يا سيدتى أنك لازلت تجهلين تقاليد الشرق مع ماقيل لى عن إلمامك الشامل بأحواله.. إن الفتاة عندما تتحجب من سن الرابعة عشرة.. وتخطر أولا تخطر فى الثامنة عشرة أو قبلها بأنها ستتزوج فلانا وكل ما عليها هو أن تستعد .

وقد قيل لى وأنا فى الثامنة عشرة إن على أن أستعد لأتزوج السلطان ولما عارضت وكان العريس يكبرنى بسنوات عديدة تعجبوا وقيل: «كيف ترفض بنت من الشعب يد السلطان؟!»

وأخذت جلالتها تضحك فى صفاء.. بينما سبحت أنا أفكر فيما

عرفته من قصة هذا الزواج.. وكيف قضت الملكة أسابيع فى البكاء والصراع.. قائلة إنها لا تريد أن تفنى شبابها مع رجل فى سن أبيها.. وإنها لا تريد أن تعيش إلى جوار رجل لا يعيش فى قلب أحد قط من رعاياه، ثم كيف تغلب نظام الأسرة التركى ووجدت هى أن زواجها أصبح أمرا لا مفر منه.. وكيف ظلت تقاوم حتى آخر لحظة .. حتى لقد أقيم الزواج بلا احتفال ولا صخب كما هى العادة ولم يشهده سوى أسرة العروسين من الرجال ثم سيدتان فقط إحداهما مدام قطاوى، وبالطبع لم يفرح أو يخفق قلب أحد فى مصر لزواج الملك المتعجرف الذى كان يعيش فى خوف دائم من شعب بلاده .

وأخذت أجول ببصرى فى صورة حميها الخديوى إسماعيل المعلقة فوق رأسها وفى زهريات الورد البديع المتناثر فى كل ركن من الغرفة.. وجلالتها كما عرفت مغرمة بالورود وهى تغيرها يوميا وتحب أن تكون كلها من لون واحد .

وقلت لجلالتها بعد لحظات الصمت: إننى أرى الحرية قادمة إلى نساء مصر .

فردت على الفور: إن الحرية قادمة لاشك فيها ولكنها قادمة ببطء وأنا فرحة بها.. وأدعو الله صباحا ومساء ألا تلقى فوزية

نفس مصير أمها.. وأن تستمتع بالحرية فتستطيع أن تتزوج من تريد وتسافر وتذهب وتجيء. الأمر الذى لا أستطيعه أنا .

وسرت غمامة حزن فى وجه الملكة.. ولكنها ما لبثت أن استعادت مرحها بسرعة وقالت: إن فوزية ستأخذ برأيى.. لا مناص .

وسألت جلالتها: أظنك على علم بحركة المرأة الجديدة وكفاحها فما رأيك فيها ؟.

فقالت: إننى أعرف طبعا شيئا مما يفعلن وأنا شديدة الإعجاب بهن.. وإن كنت لن أجنى شيئا من ثمار حركتهن ولكن ستتمتع بها فوزية .

وسألت جلالتها: وكيف تقضين وقتك هنا.. وماهى هوايتك المفضلة ؟

فقالت: لى هوايتان إحداهما أمارسها والأخرى لا أستطيع تحقيقها وهى السفر، وأنت لا تتصورين كم أحب السفر.. وقد طلبت من الملك مرارا أن يصحبنى معه فى أسفاره ومع ذلك فليس عندى أمل فى أن يوافق لا لشيء إلا لغيرته الفظيعة.. أنا فى شوق شديد لرؤية أوروبا مرة ثانية، إذ لم أسافر إليها منذ كنت فى الثالثة عشرة من عمرى ولقد سافرت يومئذ مع الأسرة

وهى أسرة كبيرة إذ لى شقيقتان وعدة إخوة.. ولذا لم أستطع أن أفهم أو أستمتع بالكثير مما رأيت.. ولم أكن أيضا أجيد لغة أجنبية.. فأنا لم أتعلم الإنجليزية إلا فى السادسة عشرة ولكننى أتكلم الفرنسية بطلاقة وقد تعلمت الإيطاليه أيضا.. فضلا عن العربية طبعا .

واستطردت جلالتها قائلة: ولكن ما أريد أن أراه حقا هو العالم الجديد.. أمريكا.. لابد أنها بلاد رائعة عظيمة وأنا أحلم برؤيتها كثيرا فأنا لا أحب أن أظل هنا طوال الوقت لا أسافر إلا إلى الإسكندرية، المدينة الرطبة التى لا أحبها، وأنا أفضل أوروبا ولكن الملك غيور.. غيور جدا .

وسكتت قليلا.. ثم قالت: إن هذا حمق وغباء فظيع .

وأردت أن أدير دفة الحديث إلى موضوع آخر فقلت لها :

– وما هى الهواية الثانية ؟

فأجابت: القراءة وأنا أقرأ كثيرا وإن كان من الصعب أن أحصل على كتاب جيد .

وسألتها هل أبعث إليها بكتاب أمريكى جديد عن المرأة. فقالت: إننى أجد صعوبة بالذات فى الحصول على كتاب انجليزى جيد.. ولذا سأكون سعيدة ومسرورة أن أقرأه مع ابنى

فاروق.. هل تصدقين أنه بدأ يتعلم الإنجليزية ويتكلمها الآن وعمرة لا يزيد على سنتين؟ إنه ذكى.. ذكى بشكل يجعلنى أخاف عليه أن ينقلب ذكاؤه إلى الضد !!

ولما سألتها عن الطريق الذى أبعث عنه بالكتاب قالت :

أرسليه إلى مدام قطاوى طبعا.. ليمر على رقابة الملك قبل أن يصل إلى يدى .

ودخل الخدم يحملون القهوة والفطائر.. حينما انتهينا من تناولهما وقفت الملكة إشارة بنهاية الزيارة ووقفنا وسلمنا مودعين ..

وتركت نازلى ملكة مصر الجميلة محوطة بالأزهار النادرة وتحرسها روح الخديوى.. وفى آخر الردهة استدرت مرة أخرى لأنظر إليها.. كانت لاتزال واقفة فلوحت إليها بيدى على طريقتنا الأمريكية وتناست جلالتها التقاليد وأخذت تلوح لى بيدها البضة الجميلة ذات الماسات البراقة.. إنها هى الأخرى ماسة نادرة فى صندوق فاخر.. ولكنه صندوق معتم مظلم .



◇ حكم قصر الدوبارة



أصدر دافيد كيلي مذكراته الديبلوماسية. وقد كان دافيد كيلي مستشارا لدار المندوب السامي أو قصر الدوبارة – كما كانت تسمى – وذلك خلال الفترة الحرجة الدقيقة من ١٩٣٤ – ١٩٣٨ وهي الفترة التي عقدت فيها المعاهدة المصرية ومعاهدة مونترو .

كان مرتبي من وزارة الخارجية لا يكفي سوى نفقاتي في لندن، ولهذا حينما عرض علي منصب المستشار في إحدى سفاراتنا في الخارج لم أستطع أن أرفض وحينما جاء المنصب في القاهرة وافقت على الفور .

وكان ذلك سنة ١٩٣٤ وكان المندوب السامي في مصر السير مايلز لامبسون قد جاء إلى بريطانيا في أجازة طويلة ليتزوج وخلال العطلة والزواج وشهر العسل كان علي أن أقوم بعمله .

* * *

ووصلت إلى مصر وبدأت أعرف وأدرس مصر ورجال مصر. وكان رئيس الوزراء في ذلك الحين توفيق نسيم. وكان توفيق

نسيم يعد نفسه بصراحة وبلا حاجة إلى مواربة صنيعتنا وكان يعترف بهذا فخورا وبغير تحفظ، وكان يفتخر أنه اشتغل سنين طويلة مع عدد كبير من رجالنا وموظفينا، وفى قرارة نفسه كان توفيق نسيم يأسى دائما لأننا قد تخلينا عن الكثير من نفوذنا وكان توفيق نسيم دائم الزيارة لقصر الدوبارة وكان يطلب طائعا مختارا مشورتنا فى كل شىء ويعمل بها طبعا !

ولقد عجبت فى أول عهدى بالعمل للعدد الكبير من الشكاوى والمطالب التى كانت تتلقاها السكرتارية الشرقية من بعض الفئات كالسياسيين وكبار الموظفين الذين يريدون المناصب ذات النفوذ. هذا إلى جانب شكاوى من فلاحين يشتكون مالكا اغتصب مياه الرى .

ولقد كان سيل زوار دار المندوب السامى لا ينقطع، ولكن كان من أطرفهم وأكثرهم إثارة لإعجابى وأكثرهم ترددا الشيخ المراغى شيخ الجامعة الأزهرية العظيمة وشيخ الإسلام فى مصر حينذاك، وكانت طرافة الشيخ الخاصة تبدو فى عنايته بالاتجاهات الإصلاحية التى كان يشجعها بغير ضجة وفى محاربته لكثير من الخرافات الشائعة .

ولكن كل شىء فى مصر كان يبدأ فى قبضة الملك فؤاد هذه

الشخصية وهذا الرجل المهاب المثير.. ولقد بدأ الملك فؤاد حياته ضابطا فى الجيش التركى وعين ملحقا عسكريا تركيا.. ثم ترك منصبة ليعيش فى القاهرة حياة فقيرة نسبيا، وحينما عين سلطانا خلفا لأخية حسين كامل تحت الحماية البريطانية أقبل على منصبه وعلى مهامه الملكية بشغف وبمعرفة غير عادية للحياة، فضلا عن ذكاء طبيعى لامع ودهاء عميق راسخ، وكان الملك فؤاد يحتقر مواهب الإنجليز الثقافية ويحتقر مواهب أكثر السياسيين المصريين الخلقية.. وخلال آخر عامين من حياته أتيح لى أن أقضى معه ساعات طويلة عجيبة من حياتى.. ويبلغ ما قاله لى حينئذ من الغرابة درجة تجعل من عدم اللياقة أن أورده. فمثلا كان دائما يفخر بأنه يفهم الخلق الإيطالى والفرنسى والألمانى فهما تامًا، ولكنه قد يئس تماما من فهم أو تفسير الخلق البريطانى وتصرفات البريطانيين، وهو لا يفهم ولا يغفر لهم ولا يملك إلا أن يحس بأشد المرارة نحوهم لأنهم مثلا: فرضوا دستورا بلچيكيا على المصريين الذين لا يصلحون إطلاقا للحياة البرلمانية، ومادامت مصلحتنا الكبرى فى مصر هى مصلحة استراتيچية بحتة فلماذا لم نقنع بأن نترك له هو حكم البلد وإدارته كما يريد ونكف نهائيا عن التدخل فى أساليب

حكمه وهو يضمن لنا مصالحنا الاستراتيجية ومواصلاتنا الإمبراطورية ويؤمنها لنا كما لا يستطيع حاكم آخر لمصر ؟

ولقد كان الملك فؤاد مصابا بجرح فى زوره نتيجة لمحاولة اعتداء على حياته قبل أن يصبح ملكا، وحينما كان الملك يغضب أو يستثار كان يصدر عنه نباح عال غريب يبعث الذعر إذا سمعته لأول مرة ولم يكن قد حذرك أحد منه، وكان هذا الصوت المخيف ينبعث أمامى فى كل مرة يذكر فيها الملك سلفى موريس باترسون الذى أثار حفيظة وحقد الملك فؤاد حتى كان مجرد ذكر اسمه يثير سيلا من السباب .

وكان باترسون قد جاء إلى مصر فى أغسطس سنة ١٩٣٤ لمهمة خاصة.. كان الملك فؤاد قد أقال وزارة يرأسها رجل واسع الذكاء ذو شخصية خارقة هو صدقى باشا، وكان يحكم عن طريق وزارة من وزارات القصر المعهودة يرأسها نكرة يدعى عبد الفتاح يحيى باشا وكانت وزارة الخارجية البريطانية تخشى أن يؤدى اضطراب الموقف السياسى فى مصر إلى هزة قد تؤدى إلى عودة الوفد إلى الحكم، ولهذا قررت إيفاد موريس باترسون رئيس القسم المصرى إلى القاهرة حتى لا تخلو دار المندوب السامى. ولم يكد باترسون يصل إلى القاهرة حتى وجد

الملك مريضا مرضا شديدا يخشى منه على حياته ولم يكن باترسون ورجاله يريدون أن يموت الملك فؤاد والوزارة فى يد عبد الفتاح يحيى، وقرر باترسون أن يعهد بالوزارة إلى توفيق نسيم الذى قضى كل حياته يعمل مع البريطانيين وتحت إشرافهم وكان يتلهف دائما على التعاون معنا، واستقال عبد الفتاح يحيى على الفور، وتولى نسيم الوزارة وأثار هذا الملك فؤاد وأخرجه عن طوره حتى لقد بدأ يفكر فى الانتقام ولو عن طريق إعادة الوفد وكانت مهمتى أن أهدئه .

ولقد كان الملك فؤاد يملك ثروة طائلة تقدر بعدة ملايين وكان رجل أعمال ماهرا يستغل ثروته ويضاعفها بكل الوسائل، ولكن أبرع ما يستغل فيه بعض نقوده هو شبكة الجاسوسية المحكمة التى أنشأها والتى كانت توافيه بكل الأخبار السياسية والاقتصادية والاجتماعية بينما كان اعتماده السياسى والاقتصادى كله كان علينا.. وقد قال لى ذات يوم إن جده الكبير محمد على قال يوما لقنصلنا فى الإسكندرية سنة ١٨٢٨ «بصداقتكم لى أستطيع القيام بكل شيء وبغير صداقتكم لى لا أستطيع القيام بأى شيء لأنى حيثما تلفت وجدت بريطانيا هناك تثير دهشتى» .

ولم يمض على وقت طويل فى مصر حتى اصطدمت بحقيقة واقـعـة واضـحـة، كـان كل أنصـار عـدم الاتفـاق مع مـصـر يتجاهلونها وهى أنه إذا ما وقعت الحرب فإن مركزنا فى مصر هذه المرة سيكون مختلفًا تمامًا عن مركزنا خلال الحرب العالمية الأولى ذلك أنه خـلال تلك الحـرب كـان كل الجـهـاز الإدارى الذى أنشـأة كـرومـر قـائمـا وفـى أيدينا وكـان الشـعـور الوطنى لازال جنينا على أية حال . أما الآن - فإن علينا أن نعتمد كليا على المصريين فى مواصلاتنا وفى كل شىء ماعدا أقلية من الموظفين البريطانيين الكبار فى البوليس أبقيت لأغراض الأمن الداخلى.. ونتيجة لشعور الشعب السائد نحونا لم يكن هناك من يقف إلى جانبنا ولقد كان هناك بضعة مستشارين فى وزارتين أو ثلاث وزارات، وكان هناك مفتش عام انجليزى للجيش المصرى. ولكن كان من المؤكد أنه حتى فى حالة مقاومة الشعب السلبية لنا - وهى مؤكدة - وقد تتطور إلى أسوأ.. فإن حاميتنا الضئيلة فى مـصـر لن تستطيع الاسـتـيـلاء على المواصلات وإدارتها ولهذا خرجت بنتيجة هى أن جلاء قواتنا عن القاهرة الذى يمكن أن يتم عن طريق معاهدة لن تكون له النتائج الخطيرة التى حاول بعضهم إقناعى بها، وقد كان رؤساء أركان الحرب فى لندن قد

قرروا ذات مرة بلا مناقشة أن الاحتفاظ بحاميتنا فى القاهرة أمر حيوى وضرورى لسلامة الأمبراطورية، وذات يوم كنت أتريض على الخيل مع البريجادير كيلى رئيس أركان حرب الحامية فى طريق السويس فوجدت أن المواصلات البرية وقنال السويس نظرية خرافية، بل وعلى العكس كانت هناك حجج عسكرية وسياسية دامغة تؤيد ضرورة جلاء قواتنا عن القاهرة .

ولقد كانت ثكنات قصر النيل فى القاهرة موبوءة بالبق ولم يكن لدى الجنود أية فرصة للترفيه والترويح، لأن معظم أنحاء المدينة كانت محرمة عليهم. أما الضباط فقد كانوا على العكس من ذلك يستمتعون بكل وسائل الترفيه الممكنة. وكان نادى الجزيرة الفاخر يجعل الحياة فى القاهرة متعة جميلة لهم. وكان وجود القوات الأجنبية فى القاهرة استفزازا دائما للشعور الوطنى، ولاشك فى أن هؤلاء الجنود سيجدون أنفسهم فى موقف عسكرى يائس لو نشبت حرب ووقعوا هم بين شعب محلى معاد فى الداخل ودولة أوروبية مهاجمة من الخارج.. بينما المواصلات الحديثة قد جعلت المسافة بين قناة السويس ووادى النيل لا تتعدى بضع ساعات قليلة جدا .

وبعد دراسة كل هذه الحقائق أرسلت مذكرة إلى وزارة

الخارجية البريطانية.. أوضح الحاجة التى تحتم القيام بمحاولة جديدة وقوية للمفاوضة من أجل توقيع معاهدة، ولقد تحققت أيضا أنه من المستحيل الوصول إلى معاهدة، مع حكومة لا يسندها تأييد شعبى ولم أجد أن هناك عقبة كئودا تمنع من تعاوننا مع الوفد إذا ما كنا مستعدين لإجلاء قواتنا من داخل البلاد إلى منطقة القنال، وجاءنى الرد على مذكرتى.. وكان تلغرافا شخصيا وخاصا من الوكيل الدائم لوزارة الخارجية السير روبرت فانستارت يحذرنى من أن هناك أعضاء فى مجلس الوزراء البريطانى يثيرهم مجرد ذكر كلمة معاهدة مع مصر حتى تصطدم رءوسهم بالسقف وأنه من الخير أن أنسى الموضوع وطبعا نفذت هذه النصيحة .

وظل الأمر منسيا حتى عاد السير مايلز لامبسون من الإجازة. وخلال مناقشاته معى ومع المستشار الشرقى سير والتر سمارت أو سمارتن كما كنا نسميه وصل السير مايلز إلى نفس النتائج التى وصلت إليها أنا فى مذكرتى إلى وزارة الخارجية البريطانية فى صيف سنة ١٩٣٥ .

ولقد اقترنت عودة السير مايلز لامبسون ببداية حركة عاصفة عنيفة من الإضرابات ومظاهرات الطلبة المستمرة سنة ١٩٣٥

وقد كان رسل باشا يرأس البوليس المصرى وكان اختصاصه مكافحة تهريب المخدرات لا تفريق المظاهرات. وإن كان له من مساعديه الأقوياء الشكيمة خصوصا الأيرلندى الجبار فيتزيا تريك خير معاونيه فى ذلك .

ولقد انتشرت عدوى هذه المظاهرات والإضرابات إلى كل الطبقات.. الفرد المصرى قد يكون رقيقا مهذبا ولكن مظاهرة مصرية هى خطر مخيف. وقد روى لى ضابط انجليزى فى البوليس والجيش المصرى قصصا عن متظاهرين كانوا يلقون بأنفسهم على المدافع والحراب بلا مبالاة .

وقد أدت هذه المظاهرات العنيفة إلى اتحاد الوفد مع كل الأحزاب الأخرى، ثم مجىء وفد مشترك إلى دار المندوب السامى ليقدم عريضة تطالب بفتح باب المفاوضات .

وتلقفنا زيارة هذا الوفد الفريد فى نوعه وأرسلنا إلى وزارة الخارجية التى وافقت خلال بضعة أيام على المفاوضة، وعينت وفدا مكونا من المندوب السامى وأنا وسمارت ورؤساء أركان حرب القوات المحتلة الثلاث .

وعقدت معاهدة سنة ١٩٣٦ .

وعرفت خلالها زعماء المعارضة المشهورين من رجال الوفد

وعلى رأسهم طبعا النحاس باشا ومكرم عبيد. وقد كان النحاس ومكرم يكونان شخصيتين متناسقتين لأن شخصياتهما كانتا تكملان بعضهما بعضا.. كان مكرم ذكيا ذا عقلية خصبة صقلتها دراسته في أكسفورد وكان النحاس أقل مرونة منه وأكثر صراحة .

ومن أطرف ما حدث لي أن قابلت حسنين باشا فقد وجدت فية زميلا قديما لي في أكسفورد، ولهذا كنت أستطيع أن أناقش معه السياسة وأتبادل معه أدق الأسرار بطريقة لم أكن أستطيعها مع أحد من السياسيين مطلقا في مصر... ولقد كان مركزه كأمين ثان ثم كأمين أول للملك.. يجعل لصلاتي به قيمة كبرى. وقد كان حسنين خريج كلية باليول وكان كابتن فرقة السلاح في أكسفورد وقد توثقت علاقتنا لدرجة أننا كنا نلتقي يوميا في بعض الأحيان خلال السنة الثالثة والرابعة من وجودي في مصر. ولقد التقينا في مصر كأصدقاء قدامى. وكان مفهوما لهذا أن أحدا منا لن يفشي سرا للآخر أو يورطه في شيء.. وقد كان الملك فؤاد بدهائه المعتاد في فهم تقدير الناس يقول لي: «إن حسنين رجل ضعيف ولكنه على قسط عظيم من الذكاء وهو

أيضا خفيف الدم» وقد كان حسنين صديقا صدوقا لسياستنا ولهذا كان من السخرية اللاذعة أن تكون نهايته بسبب لورى بريطانى .

* * *

ومات الملك فؤاد بعد مرض عضال وكان موته نهاية فصل فى تاريخ العلاقات المصرية البريطانية وسرت فى جنازته وكنت طوال السير فى سترتى الرسمية أفكر فيما يخبئ لنا المستقبل. وهل سنستطيع أن نكبت قوى التعصب الوطنى التى استطاع هذا الملك القادر العجوز أن يكبح جماحها، وأن يكبتها وأن يرسبها فى القاع لمصلحتنا بأمهر وأبرع مما تستطيعه بضعة الآلاف من الجنود الذين يكونون حامية القاهرة أو بما تستطيعه سياسة وزارة الخارجية المترددة .

ولم يكن أحد منا قد قابل الملك فاروق بعد ولم يلقه سوى السير مايلز لامبسون لبضع دقائق فقط.. ولكننى كنت أدرك وأفكر فى حاله وهو شاب محدود التجارب جدا، ولقد كان فاروق الابن الوحيد للملك فؤاد ولقد ربى فى الحريم ولم يقابل رجلا سوى معلم ركوب انجليزى وقد أرسل قبل وفاة أبيه ببضعة أشهر إلى لندن، وكانت التعليمات من أبيه صريحة إلى

حاشيته المرافقة له وهى أن يعكف على كتبه ولا يتصل بأحد إلا للضرورة..

وحينما قابلت فاروق لأول مرة بعد عودته من لندن قال لى إنه كان يأمل لو التحق بالكلية الحربية كطالب نظامى وإنه كان يود لو يقضى ساعات طويلة فى المكتبات فى شارع «شارنج كروس» ولكن لم يكن يسمح له بالاثنين ..

وقد كان الملك الصغير الذى كان فى حوالى السابعة عشرة من عمره يستمتع بذكاء طبيعى، وكان ذا هواية خاصة للتاريخ. وكان مولعا برواية النوادر والقصص الطريفة، ولكن كل هذه المواهب مع هذا لم تكن تكفى لتواجه ضغط ومؤامرات بلاط ملكى شرقى. ولقد كان هناك مجلس وصاية رائع ولكن الملك وقع فى مرحلة مبكرة من عمره تحت نفوذ على ماهر باشا الذى أصبح صاحب النفوذ الأول فى السراى، وكان على ماهر رجلا ذكيا جدا ولكنه كان طموحا وكان طموحه يستهلكه، ولهذا فقد وضع نصب عينيه على الفور أن يصب فى الملك الجديد نفس الكراهية التى كانت تفيض بأبيه نحو الوفد .

وكان النحاس يزهو بنفسه.. وكان زهوه هذا أمرا يثير المرح لا العداء، ولكن على ماهر استطاع أن يستغل هذا وأن يستغل

أيضا المركز الشعبى للنحاس فى إيغار صدر الملك.. وقد أسر لى صديقى حسنين باشا يوما بأن الملك كان يبكى من الإهانة حينما كان يلمس فى الصحف اهتماما بالنحاس أكثر من الاهتمام بشخص الملك.. وكان النحاس يثير ملل الملك بخطبه الطويلة الرنانة حتى فى مقابلاته الخاصة، كان يغيظه بثقته المطلقة فى نفسه، كان النحاس وفاروق يشبهان الملكة فيكتوريا وجلادستون فطالما كانت تشتكى من أنه كان يخاطبها كما لو كان يخطب فى ميدان عام .

وفى هذا الصدد كنت أعطف على الملك لأننى كنت أقاسى نفس الشىء مع النحاس، وكلما ذهبت لأناقش معه موضوعا كان على أن أستمع إلى خطبة حماسية تستغرق نصف ساعة أو ساعة عن فلسطين.. قبل أن أنفذ إلى الموضوع الذى جئت من أجله .

ولقد كان أطرف حوار هو ذلك الذى كان يدور بين النحاس وبين محمد على رئيس مجلس الوصاية وولى العهد وعم الملك.. كان محمد على أميرا واسع الثراء يعيش بقلبه وعواطفه فى الماضى وكان يروى لى وهو بادى الحزن أنه وهو صغير كان هناك ثلاثون ألفا.. أى كل رجال السراى والحكومة يتكملون

اللغة التركية كلغتهم الأصلية وأن أول ما يتمناه ويحلم به وما يود لو يستطيع أن يحققه هو أن تعود مصر إلى الخديوية القديمة فى ظل التبعية لتركيا، وإذا تعذر هذا فهو يتمنى نظام كرومر وعهده، وكان محمد على يكره الوفد ولكنه كان يحتقر الزعماء الآخرين الذين لاجدوى لهم والذين يمثلون أحزابا وهمية، والذين يكرنون وزارات القصر المتلاحقة وكان دائم الأسى على غلطاتنا السياسية والسيكولوجية التى أدت إلى التدهور التدريجى للنفوذ البريطانى فى مصر .

* * *

وما لبثت كل هذه القوى أن أدت إلى قطيعة بين النحاس وبين الملك.. ولم يدهشنى أن يبدأ الملك فاروق أهم عمل سياسى له عند بلوغة سن الرشد بإقالة النحاس باشا واستبداله بمستشاره الأريب على ماهر باشا .

وحكمت مصر مرة أخرى وزارة من وزارات القصر وأقصى الوفد إلى صف المعارضة ثانية .

وبعدها بقليل وفى أوائل سنة ١٩٣٨ نقلت من مصر لأرأس المكتب المصرى فى وزارة الخارجية وذهبت لأودع النحاس

وقابلني ببساطته وترحابه المعهود، ولكنه شن حملة عنيفة على الحكومة البريطانية التي تآمرت على إقالته.. وكان مستحيلا أن أقنعه أن أحدا لم يأسف مثلنا على هذه الإقالة .



◇ رحلة فى قلب نهرو



«هذه الصور أثارت أكبر ضجة عرفتها محافل الهند.. ولم يسكت هذه الضجة إلا نهرو بشخصه عندما قال:

«هذا هو أنا» وكريشا مينون عندما أعلن: هذه هى نفسى التى أريد الهرب منها.. إنها قصة فنان يكتب التاريخ بخطوطه وألوانه».

لم يجلس نهرو إلى فنان ليرسمه إلا «لسوتيسن جوجرال» الفنان الأصم الذى يسمونه لهذا «الرسام الوحيد الذى عرف نهرو من الداخل» وقد بدأت اللوحة وانتهت بمحض الصدفة خلال عدوان السويس وكانت لحظات العزاء الوحيدة لنهرو هى الجلوس إلى سوتيسن والحديث إليه.. «ولم يكن هناك رجل ـ مهموم همًا ثقيلاً مبرحًا مثل الرجل الذى كنت أرسمه» كما قال سوتيسن.

وقد نشأ سوتيسن وولد طفلاً أصم لم يستطع أن يتم دراسته لعاهته فانقطع عن المدرسة وهو فى الثالثة عشرة وأخذ يمضى أوقاته وينسى مأساته فى الرسم وفى التجول بين حقول البنجاب

وعلى ضفاف أنهارها وعثر عليه أحد أساتذة الرسم وأدخله أحد معاهد الفن فى لاهور وكانت عاصمة الثقافة فى الهند القديمة والحديثة، وحينما صقلت موهبته ونضجت روحه واستعد لتقبل الحياة فاجأته وصدمته المأساة الكبرى التى صدمت ملايين الهنود وعاش كل الهول الأكبر والفزع الذى صحب التقسيم، ورأى بعينه المذابح التى شملت الهند والآلاف تذبح بعضها والملايين تفتك كالوحوش الضارية بالملايين. ورأى «الذين كسبوا حريتهم بالحب وعدم العنف يكشفون عن أفاع وثعابين قاتلة كانت تكمن فى صدورهم».. ورأى «جثث النساء والأطفال والصبية بالمئات والآلاف ملقاة على أرصفة لاهور وفى كل قرى وحقول البنجاب» ورأى الهند كلها.. «غاندي ونهرو وجنة ولياقت والكل عاجزون عن أن يصدوا هذا الطوفان.. الذى انفجر ككل براكين الشر فى الإنسان».

وكما يقول: «عشت كل أهوال التقسيم ولم يمنعنى الصمم من أن أحس الهاوية المريعة ومن أن أسمع الزلزال الذى عصف بروح الإنسان، ولم أكن لأستطيع أن أجيب كيف أو لماذا وقعت المأساة ولم أكن أفسرها إلا بأنها شرط من شروط الحياة وبأن مذابح البنجاب قد أظهرت كل خطايا الإنسان، وكنت أرى

الضـيـاع الحيـاة المبددة حـولى ليـضطرم الألم العنيف وكل الشيـاطين وألسنة الجحيم والأشبـاح المخيفة التى تراها فى لوحاتى هى لأننى عشت كل هذا».

ورسم سوتيسن جوجرال كل المأساة وظل الكابوس لا يفارق حياته إلى الآن وكان احتجاجه الوحيد عليه هو لوحاته.. ولهذا صب فيها كل الخوف والفزع وكل السخط والثورة وصب فيها أيضا كل العطف والحب والشفقة التى يشعر بها نحو الإنسان. وحينما أقام معرضه الأول كان حدثًا من أحداث الفن فى الهند ورأوا جميعًا الحدث الوحيد الذى كانوا يريدون أن ينسوه وألا يروه أبدًا، وسجله سوتيسن بحيث لا يشعرون بالخزى والعار ولكن بالعطف والرثاء وطلب الغفران لأنفسهم.

ورأى معرضه سفير المكسيك فى الهند وقال له: إنك ترسم كما يرسم ديجودى ريفييرا.. رسامنا العظيم ولابد أن تذهب إلى بلادنا وستجدها وطنًا ثانيًا لك.. وكان سوتيسن يريد أن يخرج من الهند ومن نفسه وأن يكتشف عالماً جديداً فذهب إلى المكسيك وعاد بعد عامين وكما يقول: «أقمت أول معرض لأعمالى بعد عودتى من بعثة العامين فى مكسيكو وتحدثت الصحف كثيراً وكتب النقاد بإسهاب واشتد الجدل فى دوائر الفن وفى

آخر يوم زارت أنديرا غاندى المعرض وبعد أن طافت به قالت لى : لابد أن يرى أبى هذا المعرض ولنهاية المعرض ولارتباط صالة العرض بفنانين آخرين طلبت أنديرا أن أحمل اللوحات كلها إلى منزلهم ليراها جواهر لال هناك. وتم هذا بالفعل وفى ذلك الوقت كانت مدام «صن يات صن» تنزل ضيفة عندهم. وكانت مس نايدو حاكمة ولاية البنغال وابنه ساروجينى نايدو الشاعرة والمجاهدة المشهورة ورأى الجميع اللوحات وطلبت إلى مدام صن يات صن أن أقبل دعوتها للصين وأعرض هناك وقلت لها إننى أقمت عامين كاملين خارج الهند، وأريد أن أبدد الغربة وأبقى هنا بعض الوقت وطلبت إلى مس نايدو أن أذهب إلى البنغال حيث لا تزال المأساة حية وبألوان فاقعة ولكننى أردت أن أظل فى بلدى تراب البنجاب وأنهار البنجاب وهواء البنجاب»!

«وبعد يومين اتصلت بى أنديرا وقالت إن والدها يريد أن أرسم صورته وكانت مفاجأة كبيرة لأن جواهر لال رفض أن يقف أمام رسام أو مثال، ولأن كل رسام فى الهند يريد لا شك أن يرسم جواهر لال لا لأنه رئيس الوزراء ولكن لأنه الهند الحديثة».

وفى اليوم الذى تحدد ذهبت لأرسم جواهر لال نهرو

وانتظرت بعض الوقت ثم ما لبث أن دخل مهمومًا همًا ثقيلاً حتى لم أر فى حياتى رجلاً مثقلاً بالهم مثله فى ذلك الصباح وقال لى: إننى أشعر بخوف على السلام وعلى مصير الإنسانية كلها لم أشعر بمثله أبدًا.. إننا جميعًا فى خطر.

وعرفت لأول مرة بنبأ العدوان على السويس والهجوم على بلادكم وجلس وأخذنا نتحدث حديثًا طويلاً حول مصر وحضارة مصر ودور مصر وواجب الهند وحينما انتهت الجلسة كان يشعر ببعض الارتياح، وبدأ من ذلك الصباح معركته ضد حرب السويس وخرجت مصر منتصرة فأحسست أنه انتصار شخصى له.. وكان فرحًا كطفل برىء.

«ولقد أتيح لى خلال هذه المدة أن أرى جواهر لال فى كل حالاته وهو ثائر غاضب وهو متكبر متعال وهو مشمئز وهو حزين متألم وهو حالم متصوف، ورأيته يعامل الأسماء الكبيرة والرهيبة باحتقار وبعجرفة وبضيق شديد وسمعته يبدى لى رأيه فى كثير من الناس بصراحة ويتحدث عن الهند ومشاكل الهند كما لم يعرف أحد غير أقرب المقربين إليه».

وتأكدت وأنا أرسم نهرو أن هذا رجل فنان ضل الطريق إلى السياسة وأنه لا يكره شيئاً مثل الطريق الذى سار إليه وأنه لو

خيّر مرة ثانية لاختار الفن وأننى لأذكر ما قاله لى آخر يوم حينما انتهينا.. أن الهند والإنسانية كلما صارعت للبقاء فإنها تبقى وتستمر بالفنانين لا برجال السياسة..

ورسمت لوحتين لنهرو..

كانت الأولى للرجل «الوحيد» الذى يقاسى ويعانى فى وحدته والمثالى الذى ارتفع إلى عالم لا يجد فيه أحداً يفهمه أو يشاطره أحلامه وأفكاره، والثانية للرجل الثائر الذى يرى الواقع ويقارنه بأحلامه وما يريد فيحط بالتشتت ويمضه هذا الإحساس وقد رسمته فى هذه الصورة يحمل الوردة التقليدية والمغرم دائمًا بوضعها فى عروخه ولكنها وردة تحوّلت إلى حديد جامد وفوقه سماء مظلمة وأمامه حقول جرداء.. وبوجه ملأته تجاعيد الرجل الحساس الذى أرهقته أحاسيسه لأنه يرى الأشياء ويحس بعجزه عن تغييرها كما يريد. كان نهرو فى هذه اللوحة يذكرنى دائما ببوذا يهبط عليه الوحى وتضىء نفسه بالمعرفة ويمنحه الوحى والمعرفة القدرة على رؤية الأشياء كما هى وكما يجب أن تكون، ولكن بغير أن يملك القدرة على تغييرها وخلال هذه اللوحة كنت أذكر دائماً كلمة بوذا.. إن المعرفة قلق عظيم.

وأما اللوحة الثانية فكانت صورة رجل فى حرب حامية

مستمرة مع نفسه خيوط أحلامه هى التى تقيّد يديه وأفكاره المضطربة هى التى تذكى الجحيم حوله وصراعه «الهرقلى» الذى ينتهى دائماً كما لا يتمنى ويبعث نظرة الحزن العميق فى عينيه.. كان نهرو يبدو لى فى هذه الصورة.. «بروميثيوس المقيّد».. والذى لا يرى فكاكاً لقيوده.. وحينما انتهيت من هذه الصورة.. قال لى نهرو: «هذا أنا تمامًا.. إن الإنسان دائمًا مثل جبل الثلج.. يطفو القليل منه على السطح وأما معظمه فيظل تحت الماء.. وأنت يا سوتيسن رأيت الصورة كاملة».

وحينما رأى النقاد صورة نهرو ثار أكثرهم وقالوا أنت متشائم وهذا ليس نهرو وهذه صورة ذاتية لنهرو.

ولكن جواهر لال أسكت النقاد جميعًا وقال «سويتسن على صواب» وعلّق الصورتين فى بيته إحداهما فى غرفة المكتب والثانية فى غرفة الاستقبال.. وقال لى: هكذا حتى أرى نفسى ولا أنساها..

وخلال رسمى لنهرو كانت أنديرا تشترك معنا وكنت أتأمل وجهها كثيراً وطويلاً وكان وجهها يوقظ فى نفسى دائمًا الشعور بالحنان والرحمة.. كنت أحس مدى الصراع القائم فى نفس هذه السيدة التى يعتقد الناس جميعًا أنها مرحة سعيدة وكنت أحس

تشبثها المستميت بالخيوط الأخيرة للأمل والنور ومدى الشجاعة والإيمان الذى يبعثه فيها الشعور بالخوف والعجز.. كنت أحس بالرحمة لهذه السيدة لأن المعركة فى نفس أنديرا كانت أشد حدّة منها داخل حزب المؤتمر، وكانت تنعكس كاملة فى هذه النفس الرقيقة ورسمت أنديرا كما رأيتها بكل التيه والضياع وكل الحنان والشجاعة والجلد.. وكما ثار النقاد على صورة جواهر لال ثاروا لصورة أنديرا.. واتهمونى بأننى أرى الأب والابنة من خلال نفسى أنا.. ولكن أنديرا وقفت إلى جانب الصورة وقالت هذه هى الحقيقة وعلّقت الصورة فى غرفتها..

وكان هناك شخصيتان أخريان أردت أن أرسمهما لأنهما يعكسان الهند وملحمتنا الحاضرة ويكملان صورة جواهر لال وأنديرا.. وهما كريشنا منون ومولانا ازاد.

ورحب كريشنا منون وطرب لفكرة رسمه وليس هناك أرق إحساسًا وأدق فهمًا للفن بعد جواهر لال مثل هذا الرجل الصارم الجبّار المشتعل على الدوام.

كان كريشنا منون يشبه لى دائمًا صخرة صلدة مضطرمة بالنار فى داخلها، وكنت أحس بالتناقض الكبير الذى يمزق نفسه بين الاشمئزاز العارم المخيف مما حوله وبين العطف

العميق الشامل على ما حوله أيضًا وكان يبدو لى أحيانًا وكأنه يريد أن يقف كشمشون ويهدم المعبد عليه وعلى أعدائه، لأنه لا يستطيع أن يطرد المرابين والصيارفة بالسيف وبالسوط.

وقد تصادقنا أنا وكريشنا منون وكان يأتى دائمًا ليزور مرسمى ويقضى وقتاً طويلاً معى، وكان يبدو لى حينما يدخل الاستديو وكأنه حيوان برى انقلب إلى قط أليف مستأنس ونسى السياسة والجنرالات والجيش ولم تعد الحياة سوى ألوان وخطوط وأفكار، وحينما انتهت الصورة جاء الكثيرون ليروا كيف رسمت كريشنا منون وكيف استطعت أن أقتحم نفسه وهل يمكن لأحد أن يقتحم هذه القلعة المغلقة، وككل شىء يتعلق بكريشنا منون كانت الصورة موضع جدل عنيف ربما لم تثره صورة من قبل، وتهافت كثيرون على شرائها وعرضوا مبالغ طائلة ورفضت وقال كريشنا منون إننى لا أستطيع أن أدفع لها ثمناً ولا يمكن أن تحرم نفسك من ثمنها، وأنا عشت التجربة والصورة وعشت نفس الحقيقية معك ومعها ولابد أن تبيعها، وحينما عرضت عليه أن يحتفظ بها بلا مقابل وألححت عليه رفض وقال: «بينى وبينك ليس لدى شجاعة جواهر لال لأواجه نفسى كل يوم وفى غرفتين.. إننى أحب كثيرًا أن أنسى وأهرب من نفسى»..

وكانت الحلقة الرابعة فى الملحمة هى صورة مولانا ازاد..
وكان يمثل لى قمة كبرياء الهند وعزتها العقلية والروحية وكان
يبدو لى وكأنه يعيش متكاملاً متصوفاً على حافة قمة شاهقة
ويرى الناس حوله صغاراً أغبياء ولا يستحقون العناد ولا جدوى
من تغييرهم أو إقناعهم، وكنت أتصور فيه السوبرمان كما رسم
نيتشه وكان يجتذبنى فيه نظرته هذه وإرادته وأحس أنه يعيش
«فوق البشر» وكنت أحس أن لهذه النظرة ما يبررها من تطوره
العقلى والروحى ومن وعيه وعبقرية روحه ومن فرط حساسية
نفسه..

وحينما فرغت من صورة مولانا ازاد واجهت مرة أخرى ثورة
النقاد وقالوا هذا ليس مولانا ازاد وهذه ليست نظرته للناس
ولكن مولانا ازاد مات وبعد وفاته بأشهر صدر الكتاب الذى لم
يشأ أن يكتبه فى حياته وكتب قصة استقلال الهند كما رآها
وكما عاشها، وكتب رأيه بصراحة فى كل الناس وكان تأييداً
تاماً لكل ما أردت أن أقوله فى لوحتى.. عن مولانا أبو الكلام ازاد».

وسألت يويتسن جوجرال ليجيب بإلهامه.. «إلى أين تذهب
الهند وكيف تخرج من مفترق الطرق الذى تقف فى وسطه؟» ولا
شك أن الفنان أحس القلق وراء سؤالى لأنه قال: «إننى أشحن

رسومى بالسخط والمأساة لأجعل الناس يشعرون بالذنب لأننى أريد أن أثير الرحمة وأن ما يحركنى هو نوع من العطف ونوع من الثقة التامة فى الإنسان، ومن الخطأ أن نظن أن مهمة الفن هى أن يجعل الناس سعداء.. إن الفن لا يجعل الناس سعداء أو تعساء بل الفن عليه أن يثير الناس وأن يرتفع بالإنسان حتى ولو كان فن المأساة. إن الفن لا يقدم أنجيلاً ولكنه يحرر روح الإنسان لكى تستطيع أن تجد الحقيقة بنفسها..».

«إن الفن يخاطب الروح وإذا ما استطعت أن أثير أرواح الناس فقد أديت مهمتى وأنا أعتقد أن العمل الفنى لابد وأن يحوى عنصرين هما الفكرة والتعبير والفكرة التى تدور حولها كل لوحاتى هى الإنسان، وأنا أعبر عن عظمته وتعاسته وصراعه الدائم فى سبيل التقدم وأعبر عن الأمل والأمل هو أكبر ينبوع للفرح بالحياة وكل هذه اللوحات تحفل بالأمل والأمل هو الذى جعلهم يكافحون وهو الذى يجعلهم يستمرون فى المعركة.. وهل استشهاد الإنسان، دلالة الأمل أم اليأس؟.. والذى وقف وقال أبتاه اغفر لهم فإنهم لا يعرفون ما يعملون .. هل زرع اليأس أم الأمل؟.

وتذكرت كلمات سويتسن جوجرال فقد كنت حاضراً حينما

سأل أحد الصحفيين الهنود نهرو يوم عيد ميلاده.. بمناسبة بلوغك السبعين واحتفالك بعيد ميلادك هل تشعر باليأس أم بالأمل وهل تشعر أنك بددت حياتك أم حققتها؟

وقال نهرو : ربما كان فى أمكانكم أن تحكموا أنتم ولكن ما أستطيع أن أقوله هو أننى ليس لدى إحساس بالضياع أو اليأس والتشتت بل بالعكس أحس أننى حققت حياتى ولم أبددها.. وأرجو أن لا يكون وجهى يعكس معنى آخر.. ولكن هل حققت ما أريد بالطبع لا وبكل تأكيد لا وربما من وقت لآخر أحس أننى حققت شيئًا، ولكن على العموم لم أحقق ما أريد ولا زلت بعيدًا.. والذى يعوضنى هو أننى أجد لذة فى مواجهة الصخور والمستحيلات والعقبات وأجد لذة فى مصارعتها والسقوط تحتها أحياناً والوقوف على قدمى دائمًا.. إن هذا يجعل الحياة مغامرة رائعة».

هناك أمل فى الهند..

◇مذكرات سجينة



بقلم

فيجايا لاكشيمي بانديت

شقيقة نهرو وسفيرة الهند في أمريكا

١٢ أغسطس ١٩٤٢:

كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل حينما استيقظت من نومي مفزوعة وأضأت النور فوجدت «بندا» خادمي واقفًا على حافة السرير.. ولما سألته ماذا يفعل؟ قال إن البوليس قد وصل وإنهم يريدون أن يروني.

ولقد كانت رأسي ساعتئذ ثقيلة مضطربة وتموج بكل الأحداث التي تعاقبت خلال الأربع والعشرين ساعة الماضية، وكان الرصاص الذي حصد مواكب الطلبة لا يزال يدوي في أذني. وكانت وجوه الذين سقطوا ووجوه الذين حملتهم إلى المستشفى لا تزال ماثلة أمام عيني.. كل شيء في كان مهدمًا.. عقلي وجسدي وروحي على السواء.. وكانت الحياة وكل صورها

تبدو مهتزة معكوسة أمامي..

وكانت البنات نائمات في الفراش فلم أشأ أن أوقظهن.. شهدت «ليكا» و«تارا» أحداث الأمس وحينما آوتا إلى مخدعهما كانتا منهكتين تعستين.. ولا أظن أن ما رأتاه سينمحي قط من ذاكرتهما..

وخرجت إلى بهو الدار وأحسست أن هناك حشداً من الجنود والضباط . وما إن أضأت النور حتى دهشت. فقد وجدت كل كن قد امتلأ بهم.. بعضهم في سترهم الرسمية وبعضهم في ملابس عادية.. ورأيت شرذمة منهم تصعد إلى الفراندة حيث تنام البنات، فغضبت وأمرتهم أن يعودوا وطلبت إلى الجميع أن يغادروا المكان وأن ينتظروني في الحديقة.

ويبدو أن حكمدار البوليس قد ضايقه هذا فقد قال لي إن معه أمراً بالقبض علي فرددت عليه قائلة: ولكن أي ضرورة لكل هذا العدد من الجنود المسلحين للقبض على سيدة عزلاء وفي مثل هذه الساعة الشاذة ورد قائلاً: إن معه أيضا أمراً بتفتيش المنزل كله فتركتهم يفعلون ما يريدون وذهبت لأستعد للسجن.

وفي الواقع لم أكن أتوقع أن يقبض علي ولهذا كان الأمر مفاجأة سخيفة؛ فلم يكن في البيت أحد مع البنات ولم يكن في

الوقت متسع لكى أرتب لهن شيئًا وقد وصلت أنديرا ابنة أخى من بومباى منذ بضع ساعات فقط، ولهذا صعدت لكى أقبلها قبلة وداع ولكى أوصيها بالبنات وبعد حديث عاجل ذهبنا لنوقظهن ونخبرهن بالأمر.

وكن شجاعات باسلات كالعادة وأدركن الموقف فوراً فتقبلنه فى بساطة وفى حماس.. بل وبعد لحظات كن يساعدننى فى حزم حقائبى.. وجرت «ليكا» إلى المكتبة وأحضرت بضعة كتب دستهم فى حقائبى ولكن «ريتا» ظلت ساكنة تنظر إلى نظرات ساهمة بعينيها الواسعتين الثقيلتين بالنوم وكلما نظرت إليها أنا – خارت شجاعتى فقد كانت «ريتا» صغيرة والعالم كبير ولا أحد ليعنى بها.

وكأنما أحست هى بما فى نفسى إذ ابتسمت قائلة: «هل أذهب إلى السجن معك يا ماما» وأزاحت الكلمة كل همومى وضحكنا جميعًا وانحنيت أنا أقبلها وأحتضنها بحرارة وقالت تارا: «سنودعك يا ماما فى الحديقة ليرى البوليس كيف تقابل أسرتنا هذه الأحداث».

وخرجن جميعًا معى إلى الحديقة وحينما اقتربنا من البوليس قالت «ليكا» فى صوت عال: «ماما العزيزة لا تهتمى لشىء

سأعتنى أنا بالجميع» وصاحت «تارا»..

«وداعًا يا ماما سنحتفظ بالعلم مرفوعًا وكانت «تارا» متحمسة مرفوعة الرأس تشتعل عيناها ببريق غريب وتعلقت «ريتا» الصغيرة بى لحظات ثم قالت فى صوت قوى حنون «ماما.. أعتنى بنفسك وسنحارب نحن الإنجليز خارج السجن».

ووجدت على الباب فى انتظارى ثلاثة لوريات مشحونة بالجنود، ووجدت كل الشوارع والطرقات التى تؤدى إلى المنزل محاصرة وطلب إلى الحكمدار أن أصعد بجانبه إلى أحد اللوريات فصعدت.

ولقد كانت الأحكام العرفية معلنة فى المدينة ولهذا كان الظلام يسود كل شىء وكان مكهربًا عنيفًا مشحونًا بالاحتمالات.. وكلما نفذت السيارات إلى شارع تدافعت إلى رأسى الأحداث ليس فقط أحداث الأمس وإنما كل أحداث العشرين عامًا الماضية.

وحينما وصل الموكب إلى جسر «الجمنة» أوقفنا الحراس ليتأكدوا منا ولدهشتى ظللنا مدة حتى اقتنعوا وتركونا نمر.. وقد عجبت وأنا أشاهد هذه الدقة أى ولاء خسيس يزرعه البريطانيون فى نفوس خدمهم وعملائهم!

ووصلت إلى السجن فى الساعة الرابعة صباحًا ويبدو أنهم

لم يكونوا على علم بزيارتى فقد ثارت مشكلة انتهت بأن قادونى إلى الجناح الذى أعرفه جيداً.

وكان الصداع يفتك برأسى ومفاصلى تكاد تنهار فلم أستطع قط أن أنام وظللت أفكر طويلاً فى «ليكا» وأخشى أن يكون مصيرها مثلى إلى السجن وفى المساء جاءتنى قبل أن تنام وأخذت تتحدث فى حدة قائلة.. «ماما.. سيمضى وقت طويل قبل أن أستطيع أن أنسى ما رأيت اليوم.. وسيمضى وقت طويل قبل أن أستطيع اقتلاع الحقد والكره الذى يطغى على كل حواسى.. إن الحياة العادية الطبيعية قد انتهت بالنسبة لنا.. ويجب أن نمضى فى الطريق وحتى النهاية».

أول سبتمبر

إن الأيام هنا طويلة.. طويلة.. لا تنتهى ويبدو لى أن ليل السجن أكثر ساعات من ليل الحياة .. بل إن الزمن هنا يطول أكثر مما يجب.. إن كل يوم بشهر وكل شهر بسنة وكل سنة بقرن كما قال جواهر لال.

ولقد كان اليوم عيد ميلادى وجاء ضابط السجن يهنئنى ويسألنى: كم عمرى؟ وقلت له لا أعرف.. وأنا حقًا لا أعرف.. إننى أحس وكأننى عشت خلال عدة قرون طويلة.. طويلة..

ولقد أخذت أتذكر اليوم ما قيل لى يومًا إننا لن نستطيع أن ندرك الزمن خلال كرة من الزجاج أو خلال صفحات يوميات.. وإنما خلال أرواحنا.. وإذا ما استغرقت أرواحنا فى سبات.. جثم الزمن وطال.. وإذا ما استيقظت واضطرمت يوماً بالأسى ويوماً بالأمل ويوماً باللهفة فقد تحمل ساعة فى ثناياها ما لا تحمله عشرات السنين الجافة.

١٥ سبتمبر

إننى أتطلع الليلة إلى أمسية جميلة فى صحبة كتاب بديع أعطتـه لى أنديرا هو «أجـمل رسـائل التـاريخ» وأنا أريد أن أستغرق كل وقتى فى شىء لأننى لا أعرف كم تمتد مدة السجن هذه وأحـيـاناً يغلبنى الحنين إلى البيت وإلى البنات.. يجب أن أقهر هذه النزوات.

١٦ سبتمبر

إن تصور الحياة بغير كتب أمر فظيع تمامًا كتصور الحياة بغير رسائل.

لقد قرأت فى مقدمة الكتاب أمس: «إن البريد هو سلوى الحياة الوحيدة وطالما فى الحياة سعاة بريد فلن يفتر حماسنا للحياة أبدًا».

وما أظن أن هناك أحداً فى الحياة لم يشعر هذا الشعور يومًا، وما أظن أن أحداً منا لم ينتظر يومًا فى لهفة ساعى البريد يحمل إليه رسالة.. رسالة واحدة فقط.

أكتوبر

إننا نعطى الطعام أهمية أكثر مما يستحق وهذه حقيقة لا نعرفها إلا فى السجن، ولهذا صممت اليوم على أن أطرح الطعام من حياتى.. فلقد مرضت وأنا أحاول أن أطهى طعامى وعلى موقد فطرى وبمواد غريبة يسمونها تموين. ولم أجد سوى أن أطرح فكرة الطعام نهائياً وأن أكتفى بالخبز والشاى.

والشاى فى السجن شىء لا يصدق ولقد كانت تجاربى فى الشاى عديدة ومتفاوتة، وهى تتراوح بين الشاى المعطر الذى كانت تبعث به إلى مدام تشيانج كاى شيك وبين الشراب العسلى الذى لا يوصف والذى نتجرعه خلال الانتخابات.

ولكن شاى السجن تجربة فريدة لم تمر فى حياتى من قبل وأحياناً يهيأ لى أنهم يزرعونه فقط وخاصة للمساجين..

أكتوبر

أخبرتنى السجانة اليوم أنها قد خصصت لى خادمة من السجينات العاديات تساعدنى فى الطهى وفى تنظيف غرفتى

وجاءت السجينة وكان اسمها «دورجي» ومنها عرفت أنها في السادسة والعشرين وأنها تقضي حكماً طويلاً لقتلها زوجها.

ولقد كانت «دورجي» سوداء كالحة ولكنها كانت سمحة لطيفة المعشر ومهذبة حتى لقد أدركت فوراً أننا سنصبح أصدقاء.

وأخذت «دورجي» تحدثني حديثًا طريفًا عن السجن وعن قبحه وموازينه الاجتماعية ومنها عرفت أن لكل مكان حتى السجن أصوله وحدوده الدقيقة، فقد عرفت مثلاً أن القاتلات يتربصن على قمة السلم الاجتماعي ومن تحتهن السارقات ثم النشالات ثم المحتالات ثم مزيفات النقود ثم في الدرك الأسفل البغايا. وتاجرات الأعراض.

ولقد فهمت ساعتئذ ما كنت أسمعه حينما كانت تثور ثائرة السجينات سنة ١٩٣٢ وتقف إحداهن متهددة وتصيح «كيف تجرءون على معاملتي كما لو كنت سارقة.. إنني هنا بحكم قتل».

ولقد كنت أول ما سجنت سنة ١٩٣٢ أخاف من هؤلاء النساء.

ولكن بعد أن عرفت «دورجي» تغير فهمي للإنسانية كثيرًا.

وذات يوم خلال الحديث. وكنا نجلس كثيرًا لنثرثر روت لي

«دورجي» قصتها وهي قصة عادية قتلت زوجها لأنه يضربها ويهملها ويحرمها من الطعام، وروت لي كل التفاصيل الكريهة المرعبة بشغف وكأنما تستمد نشوة عميقة من الذكرى.. تزداد وتعلو كلما ذكرت كيف فجعت حماتها القاسية في ابنها الوحيد.

وتركت «دورجي» ولداً في الثانية من عمره ودخلت السجن ببنت في الشهر السادس من عمرها وماتت البنت بفعل السحر الأسود كما تقول.. ولكن الولد لا زال حياً.. وهو الآن في الحادية عشرة من عمره ولم تره مرة واحدة منذ سجنت.

وفي كل يوم كانت تنتابها نوبة تشنج وبكاء عنيفة على ابنها الذي لم تره وأجلس أنا بجانبها لأسري عنها.

١٢ نوفمبر

استلقيت على سريري.. وأخذت أنظر إلى السماء وأتأمل النجوم إنها تمنحني دائماً شعوراً بالطمأنينة.. فهي ساكنة هادئة لا تغير من كل ما نراه من حماقات البشر ولكنني أحيانا أسمع صوت الطائرات.. وهذا الصوت يثيرني ويبعث القلق والعذاب في نفسي.. ويجعلني أريد أن أحطم هذه القضبان.. إن من الحماقة أن يوضع البشر في أقفاص إن هذا لا يحل أية مشكلة أبداً .. إن العالم يسير في حلقة مفرغة ويعود دائماً إلى

حيث بدأ. أى معنى للتقدم إنها مجرد كلمة.. مجرد كلمة.

يناير

كانت صدمة كبرى لى أن أعرف اليوم بموت «مهاديف ديزاى» فى السجن بالسكتة القلبية.. ولقد قضيت يومًا تعيسًا أليمًا.. فقدت فيه كل سيطرتى على نفسى.. وأخذت أبكى..

إن صور حياة «مهاديف ديزاى» تتتابع أمامى وأستطيع أن أحس أى عالم ضيق لا يحوى «مهاديف ديزاى» وأننى أفكر فى «ديرجا» – زوجته – وابنها الصغير.. وماذا يفعلان الآن و«بابو» (غاندى) فى السجن وليس لهما أحد سواه.

(مهاديف ديزاى) كان (سكرتير غاندى).

ولقد ظللت طوال الليل ساهرة لا أنام واستعيد كل الأحداث التى تصلنى به.. ولقد رأيته.. وكأنما بالأمس وهو يدفع إلى بنسخة من «المودرن ريفيو» المجلة الجديدة ويطلب إلى أن أقرأ مقالاً لصديق له صديق شاب لامع من أذكى الشبان وأحبهم إليه، ولقد كان هذا عام ١٩٢٠ وكان عنوان تحت أقدام الجورو «المعلم» وكان الكاتب يدعى «رانجيت يانديت» ومنذ ذلك الحين وخلال اثنين وعشرين عامًا وأنا زوجة «الصديق الشاب اللامع».

إن موت «مهاديف ديزاى» فاجعة أليمة «لرانجيت».

يناير

قرأت اليوم ذكريات «جفرى مونسل» عن السجن.. «إن السجن مقبرة يدفن فيها الناس أحياء وترى فيه البشرية عارية».

وقرأت له قصيدة تقول:

لقد رأى وهو يسير فى حقول باشا زنزانة فيها سجين وحيد وفرح الشيطان.

فقد أوحت له بسجن مبتكر جديد لجهنم

وإننى أتمنى أن يزور الشيطان زنزانتى فإنه سيجد الكثير ليقتبسه من سجون البريطانيين فى الهند!

مارس :

تناولت فنجانًا من الشاى هذا الصباح وتمددت فى سريرى أستريح وجاءت «بيرنيما» و«كالى ديفى» و«مهاديفى تشوبى» و«لكشميبى يابات» واثنتان من طالبات الجامعة الصغيرات هما: «قيد يافانا» و«جوفيندى ديفى».. وجلسنا نتحدث أن السجن لم يعد مقبرة بالنسبة لى هذه الأيام فقد وفد عليه فى الأسابيع الأخيرة كل من أعرفهن.. حتى «نارينى» العجوز التى تقضى الليل ونصف النهار.تتلو أسفار الجينا والقيدانتا وتؤنبنا لأننا لا نشاركها.

وسمعنا فجأة ضجة فى فناء السجن وقامت «بيرنيما» لتطل من النافذة وما لبثت أن صاحت تناديني، ولما أطللت رأيت «ليكا» متلفعة بعدد من عقود الورد وقد سارت متهللة فى فناء السجن ووراءها زينب السجانة وصف من الجنود.

وظننت أنها جاءت لزيارتى وإن كنت استغربت كثرة عقود الورد ولكن بعد لحظات كانت «ليكا» فى وسطنا تعلن فرحة مزهوة أنهم قد قبضوا عليها.

«ليكا» فى السجن إذن صح ما توقعته هذه الطفلة التى لم تعرف بعد الحياة.. فما بال السياسة.

وجلست «ليكا» تروى بفخر كيف قبضوا عليها وكيف جعلتهم ينتظرون ليلة كاملة وفى البرد القارس حتى أمسكوا بها.

وجلست أستمع إليها وهى تتحدث.. وأخذت أتأملها.. يوم ولدت.. ثم وهى طفلة فى سنتها الأولى.. وأنا بجوار سريرها والثلاثة أشهر الطوال أصلى وأبكى لتشفى من مرضها.. ثم وهى فى الثامنة من عمرها ويوم قبضوا على أنا ورانجيت أبيها ويوم ذهبت تودعنا على محطة القطار.. لقد كانت يومئذ تحمل علمًا كبيرًا أطول وأضخم منها.. ولما قلت لها: «لا تحملى هذا العلم الكبير يا عزيزتى» قالت: «هذا يخيف البوليس يا ماما».

ثم «ليكا» منذ أشهر حينما احتفلنا بعيد ميلادها الثامن عشر وكانت تضطرم سعادة وحيوية وتبدو كأنها تريد أن تعيش كل لحظة وأن تنتزع من الحياة كل متعها وأخيراً.. «ليكا» التى أمامى.. لقد تغير كل شىء فيها «إن الحياة الطبيعية العادية كما يعرفها الناس.. قد انتهت بالنسبة لنا.. ولابد أن نمضى فى الطريق حتى النهاية».

لم يكن هناك مناص من أن تأتى «ليكا» إلى هنا.. لا مناص لنا جميعًا.. من أن نأتى إلى هنا.



◇ يوميات معالى الوزيرة
«من السجن ذهبت إلى الوزارة»



تسلمت صباح اليوم برقية من البانديت.. «جوفنه بالا بهانت بانت» يسألنى إذا كنت أقبل الاشتراك فى الوزارة.. وبدا لى عسيراً أن أصدق .. وشعرت باضطراب وخوف وصممت على الفور أن أرفض، ولكننى ما لبثت أن استرددت شجاعتى وفكرت فى أن هذه فرصة لا تعوض لندق المسمار الأخير فى نعش الخرافة الكبرى خرافة التمييز بين المرأة والرجل.

واستلقيت على مقعد قريب أستريح من وقع المفاجأة وأخذت أستعرض حياتى.. وأحلم: لو وقع هذا الحادث منذ عشرين عاماً فقط لما صدقه أحد ولكان خرافة أو أسطورة من أساطير الهند، فقد كانت السياسة والوطنية عالماً بعيداً مغلقًا لا تستطيع المرأة أن تسلك السبيل إليه وكانت الجاهلات والمتعلمات على السواء لا يطمعن فى أكثر من البيت والزوج والأولاد، فإذا ما تحررت إحداهن قليلاً لم يتجاوز تحررها نطاق الخدمة الاجتماعية أو النشاط الثقافى والفنى.

وتذكرت كيف حدثت المعجزة.. فمنذ عشرين عاماً فقط أعلن

المهاتما غاندى عزمه على السير ماشيًا إلى «داندى» لخرق قوانين الملح ولقد أذاع المهاتما يومئذ نداء خاصًا على النساء دعاهن إلى الخروج ليشاركن أزواجهن فى السير الطويل.. إلى الحرية..

ألفا امرأة فى السجن.

وسرى النداء يومئذ كشرارة مقدّسة وخرجت الآلاف طارحات وراءهن تقاليد وظلمات وأغلال آلاف السنين.

وقبض فى ذاك العام على ألفى امرأة وحكم عليهن بالسجن مددًا تتراوح بين ستة أشهر وست سنوات وكانت الشجاعة والتضحية اللتان أبدينها - حتى الفلاحات البسيطات - مثار دهشة العالم كله.

وفى غمرة هذا الكفاح تذكرت «سن».. كانت صديقتى وقريبة لى من بعيد.. وكانت من سيدات المجتمع الراقى وعلى جانب كبير من الثقافة والجمال.. وذهبت إليها ذات يوم من أيام عام ١٩٢٦ لأقنعها بالاشتراك معنا - وكنا أقلية ضئيلة - فى ميدان الكفاح فنظرت إلىّ باستغراب وقالت: ولماذا أشترك؟ إننى لا أجد ما يدعونى لأن أترك أولادى وبيتى لأتشرد فى الشوارع - إن هذا من واجب الرجال وليس من واجبى إن واجبى أن أخدم

زوجى وأنجب له أولادا. قلت لها: ولكن علينا أن نحرر بلادنا أيضا وهذا جزء من واجبنا ومن صالحنا لأنه تحرير لنا.. لى ولك ولنساء الهند جميعًا.

واستدارت إلى منفعلة وقالت إننى أستمتع بكل الحرية التى تحتاج إليها المرأة المهذبة المحترمة، وليس هناك من يتشدق بالحرية إلا أمثالك اللاتى هجرن بيوتهن وأزواجهن وأولادهن.

ولقد حاولت يومئذ أن أدافع عن نفسى وأن أثبت لصديقتى أن زوجى وأولادى لا تنقصهم السعادة أو العناية وأننى أضيف إلى واجبى نحوهم واجبا آخر نحو وطنى.. ولكن بلا جدوى.

لقد وقع هذا فى عام ١٩٢٦.. وفى عام ١٩٣٠ كانت هذه السيدة نفسها - وهى حامل فى شهورها الأخيرة - تقود مظاهرة كبرى فى حركة العصيان المدنى.

ولقد قبض عليها وأودعت السجن وأنجبت لزوجها ولده الرابع هناك.. إتمامًا للواجب.

فى غرفة الوزير لأول مرة كانت لدى فكرة غامضة ضئيلة عن تبعات الوزير حينما دخلت غرفتى فى بناء وزارة الصحة لأول مرة.

ولقد كانت معرفتى بشئون الحكم تافهة ولا تتعدى المرات

القليلة التى كنت أصحب فيها أبى وأنا فتاة صغيرة إلى المجلس التشريعى فى «دلهى» و«سملا» وكنت أجلس فى شرفة الزوار وأشاهد أبى وهو يتزعم حزب «السواراج» - أى الاستقلال - المعارض للحكومة.

وتقدم منى شاب رقيق مهذب.. وقدم نفسه قائلاً: إنه سكرتيرى الخاص.. ولم أفهم ماذا يعنى؟ ولكننى لم أشأ أن أسأل لكى لا أفضح جهلى..

وأخذت أجول ببصرى فى الغرفة التى سأقضى فيها معظم وقتى وأتأمل.. كان فى وسطها منضدة كبيرة تزحمها.. وإلى جوار الحائط تمددت «أريكة» جلدية عريضة وتبعثرت فى كل أركان الغرفة كراسى ومناضد صغيرة وأرفف كتب قديمة.. مما جعل الغرفة تبدو وكأنها إحدى غرف مزادات الأثاث القديم.

وصدمت عينى سجادة حمراء فاقعة على جدار الحائط الأخضر وكان هناك طابق من الغبار المتراكم قد علا كل شىء فى الغرفة، وكلما أخذت أمعن النظر فيما حولى غاص قلبى فى جنبى وأحسست بالتعاسة. كيف يمكن أن أجلس فى هذه الغرفة الكئيبة وكيف يمكن أن أصرف فيها شئون الدولة؟

والتفت إلى سكرتيرى الخاص وسألته بأدب وتردد هل

أستطيع أن أزيح شيئًا من هذا الأثاث؟ وشعرت بالراحة حينما أجاب - بعد تردد - أنه لا مانع.

واستجمعت شجاعتي وأخذت أصدر الأوامر.. وبعد لحظات كانت السجادة الحمراء الفاقعة قد اختفت. وكان كل الأثاث تقريبًا قد هبط إلى قاع المخزن.. واستطعت ببعض ابتسامات وكلمات إطراء أن أستخلص من معاون الوزارة بضع ستائر خضراء. ولما لم تستطع الابتسامات أن تستخلص منه سجادة خضراء أيضا أرسلت إلى منزلي فجيء لي بسجادتين مناسبتين. على الفور شمرت عن ساعدي وأخذت بمعاونة المعاون والسكرتير والخدم نغير أماكن وضع الأثاث وزواياه إلى أن أحسست بأنني أستطيع أن أقضي هنا بعض الوقت دون أن أشعر باليأس والتعاسة..

لا زال هناك شيء ناقص في الغرفة..

الأزهار..

وأرسلت أحد الفراشين ليشتري زهرية من معرض مصنوعات الحكومة المواجه للوزارة ولما عاد طلبت إليه أن يملأها بالورد وكنت قد رأيت منه في حديقة الوزارة فنظر إلى الفراش في صمت ودهشة ولم يتحرك.. وكررت عليه الطلب

فأسرع بالخروج وبعث إلى بمعاون الوزارة.

وكانت أمارات الفزع والإضراب تبدو على المعاون وأخذ يستجمع أطراف شجاعته ليقول: ولكن يا صاحبة المعالى كيف توضع الأزهار هنا؟ لم يحدث قط أن وضعت الأزهار فى غرفة الوزير وقلت له : لم يحدث قط.. إذن فليحدث الآن ومادمت لا تريد أنت أن تحضر الزهور فسأنزل أنا لأقطفها بنفسى..

ويبدو أن منظر «معالى الوزيرة» وفى يدها مقص تقطف الأزهار فى حديقة الوزارة قد أفزع المعاون أكثر مما أفزعه وضع الأزهار فى غرفة الوزيرة فأسرع بالخروج قائلاً إنه سيحضر ما أمرت به على الفور.

بدأ الجد والاجتهاد اليوم.. فقد وجدت على مكتبى كومًا من الملفات لم أكد أتأملها حتى أخذت أفكر كيف سأستطيع أن أفصل فيها أو حتى أن أقرأها..

وبالطبع لم يكن هناك من يعلمنى قراءة الملفات.. ولم أشأ أن أبدى جهلاً ولذا لم يكن هناك مناص من الاعتماد على النفس وأخذت أقلب فيها واحدًا تلو الآخر حتى عثرت بملف بدا من نظرى سهلاً متواضعًا.. فأخذت أقرؤه من الصفحة الأولى.. ولحسن الحظ كانت المسألة معقولة سائغة فاستغرقت فى

دراستها إلى أن أحسست الشجاعة لأن أفصل فيها.

وعلى الفور أرسلت القرار لسكرتيرى ليبدأ تنفيذه.. ويبدو أنه كان صائباً معقولاً لم يسخر به أحد.. فشجعنى هذا وتحمست واقتحمت باقى الملفات ولم تعد تخيفنى.

بدأ تحضير الميزانية.

وقد تحول كل شيء حولى إلى أعداد وأرقام أخذت تطاردنى حتى فى نومى وأحلامى.

ولما كنت لم أدرس شيئًا قط من الحساب وعجز أمهر المدرسين عن تعليمى مبادئه الأولى فقد بدت لى التجربة مرعبة.

وفى لحظة من لحظات اليأس كتبت إلى سكرتيرى البرلمانى قائلة: «إن الأرقام تفزعنى.. أرجو عمل شيء» ولم يبطئ رده الذى قال: «الأرقام تفزعك؟ لا أصدق يا صاحبة المعالى.. أنت التى واجهت المدافع وصنعت مستقبل الأمة تخيفك الأرقام؟ أنت فقط تريدين تشجيعى» وأرفق برده مذكرة عن أسرار الميزانية جعلت من الأرقام شيئاً مفهوماً.. لا يخيف.

يبدو أننى لم أكن أعامل أعضاء البرلمان كما ينبغى.

لقد كنت أنظر إليهم كما كنت أنظر إليهم وأنا فتاة صغيرة أى كأصدقاء أبى وزبائن مكتبه أو كالضيوف الذين كانوا

يزورون بيتنا خلال سنى الجهاد.

ولقد كان عسيرًا على حقًا أن أنظر إليهم الآن كخصوم أقوياء الشكيمة يتربصون بى الفرصة حتى حان موعد خطابى الأول فى البرلمان.. فقد قدم قانون تنظيم الإدارة الجديد. وكان مفروضًا أن يقدمه رئيس الوزراء ولكنه مرض أو تمارض لسوء الحظ.. ووقع اختياره - لسبب لا أدريه - على لأقوم بالمهمة ولقد جاء إلى من همس فى أذنى بأن هذا هو أهم مشروع قانون تقدمه الحكومة وأن مصير الوزارة - يا إلهى - متوقف عليه.

ولم تكن الخطابة فى الميادين العامة جديدة علىَّ.. ولكن لم يسبق لى قط أن خطبت فى برلمان.. ولذا كنت كلما اقترب الموعد أحسست بقلق وتخاذل شديدين حتى تذكرت فجأة ما قاله لى أبى مرة: «لاتفقدى أعصابك قط.. أعدى خطابك بعناية ثم انسيه تماماً وتكلمى وكأنهم لا يعرفون شيئًا عن الأمر».. واستعدت شجاعتى ورباطة جأشى ووقفت لأخطب.. ولم أحس بما قلت إلا حينما اشتد التصفيق ومر القانون بسلام.

حينما كانت السياسة مجرد حلم بالنسبة لى كنت أقرأ الصحف بشغف وإعجاب خاصة حينما تنشر أحاديث العظماء سواء أكانوا سياسيين أم رياضيين أم من نجوم السينما..

وكان يبدو لى أنه ليس فى العالم مهنة أعظم وأمتع من مهنة الصحفى، هذا الذى تفتح له كل الأبواب والذى يستطيع أن يقتحمها كلما أراد والذى يصوغ بقلمه وما يكتب عقول الناس وقلوبهم.

ولقد ظل هذا اعتقادى حتى أصبحت ممن تقتحم أبوابهم وتنشر أحاديثهم وآراؤهم على الناس، فتغير الاعتقاد تماماً وآمنت أن هناك خطرين لا يمكن دفعهما التليفون والصحفى.

وإذا كان التليفون يمكن الخلاص منه برفع السماعة فإن الصحفى لا خلاص منه مطلقًا بل كلما حاولت التخلص منه وجدته أكثر إصراراً.. وما يكفى لأن يثيره حمرة الخجل فى وجه الرجل العادى ويدفعه بعيداً.. لا يتعدى عنه صاحبنا «قطرات ماء على ظهر بطة» كما يقول المثل.

وذات يوم كان على أن أخطب فى اجتماع سياسى مهم واندفع إلىَّ جماعة من الصحفيين الشبان المتحمسين يطلبون منى نص الخطاب وقلت لهم إننى لا أعد خطبى وأنا ألقيها ارتجالا.. ورجوتهم رجاء أخوياً حاراً أن ينقلوا الخطاب كما ألقيه.. ووعدونى وعد زملاء شرفاء فاطمأننت وذهبت إلى الاجتماع منشرحة الصدر..

واستيقظت صباح اليوم التالى على أجراس كل تليفونات البيت تدق من كل صوب لتسأل عن التصريحات المتناقضة التى نثرتها فى خطابى!

لقد نشرت كل صحيفة نصًا مختلفًا ولم تنشر إحداها ما كنت أريد أن أقول.

ومرة أخرى كان على أن أخطب فى كلية للبنات ألقيت خطابا دعوتهم فيه إلى التحرر من كل الخرافات والإيمان بمساواتهن المطلقة مع الرجال؛ لأن كل تفريق بينهما إنما هو خرافة لا أساس لها من الحقيقة.

وفى اليوم التالى ثارت ثورة الآباء والأزواج حينما نشرت الصحف بعناوين ضخمة.. «مسز بانديت تقول:.. البيت خرافة اخترعها الرجل» وكنت أعتقد أن هذا قصور طبيعى فى صحافتنا الهندية ولكن زيارتى لأوربا وأنا وزيرة أقنعتنى أن صحافتنا المتواضعة أهون شرًا وأخف وطأة من الصحافة الأوربية الكبرى.

وإليكم مثالاً :

لم أكد أهبط من الطائرة فى مطار «كرويدون» فى الساعة الثانية صباحًا حتى وجدت عددا من المصورين والصحفيين

أحــاطوا بى فى المطار وأصـــروا على أن أدلى لهم بكل شىء واستطعت بصعوبة أن أقنعهم بتأجيل ذلك للغد بعد أن وعدتهم بمؤتمر صحفى.

وتسللت إلى جوارى مخلوقة صغيرة رقيقة همست فى أذنى بأنها صحفية ناشئة وترجو أن أختصها بسبق صحفى لتثبت جدارتها بين الصحفيين الرجال، وشعرت بتحيز لبنات جنسى خاصة وكانت هذه أول صحفية أقابلها فحملتها معى فى سيارتى إلى الفندق.

وظللت إلى ساعة متأخرة من الليل أجيب عن أسئلتها وكانت عن المرأة الهندية.. ما لها وما عليها.. وتشعب الحديث حتى انتهى بنا إلى الرياضة الهندية وأخذت أحدثها عن رياضتنا الهندية «اليوجا» مزاياها وفضائلها، وانصرفت العصفورة مرحة منشرحة ونمت مستريحة لأنى فعلت معروفًا واستيقظت بعد ساعات لأجد الخبر الأول فى صحيفة «العصفورة المرحة» هو: «الوزيرة الهندية تبدأ يومها بالوقوف على رأسها».

كلما نظرت إلى هذين العامين اللذين قضيتهما وزيرة أحسست أنها تجربة رائعة – لقد مرت ساعات من الفشل ومن خيبة الأمل ومن الشعور باليأس والعجز. ولكن الأمر الذى لا

شك فيه هو أن هذه الساعات على اختلاف ألوانها لم تضع هباء.. ولا شك أن الدروس التى تلقيتها زادت من قدرتى على مواجهة كل شيء.

ولقد كان خير ما قمت به هو أننى ساهمت - ولو بجهد صغير - فى دفع الخرافة الكبرى بأن المرأة لا تستطيع أن تؤدى عمل الرجل..

◇ أغنية من المرمر

«هذا ليس قبراً . . هذا أغنية خالدة من المرمر . . »

(نهرو)



دق باب غرفتى فى ساعة مبكرة جدًا من الصباح. وكنت غارقًا فى النوم، وقبل أن أفتح عينى لأرد كان قد دخل وجلس ووضع ساقاً على ساق وتحسس فى جيبه ليخرج علبة السجائر، وأنا لا أطيق رائحة الدخان فى الصباح.. وقال بلا كلفة:

– حينما تزور آجرا يجب أن تستيقظ مع إشراقة الفجر وتجمع أزهار (الشنار) كما كان يفعل أباطرة المغول..

وابتسمت، ونظرت إليه موافقاً، وكنت بعد أسابيع فى الهند قد تعودت هذه النماذج وتقبل كل ما يصدر عنها.. واستطرد يقول:

– اسمى مبارك على خان وأنا دليل فندق الامبريال بآجرا وأنا الذى سأصحبك اليوم لزيارة التاج محل والقلعة الحمراء وأطلال فتح بورسكرى، ولقد كنت مفاجأة عجيبة لى وهذه أول مرة أقابل فيها مصريا، وقد كان حلمى أن أقابل مصرياً وها هو قد تحقق، وأنا سعيد، ولقد كنت أعتقد دائما أن أقدر من يستطيع أن يفهم المغول وتراث المغول هم أنتم المصريون بناة

المعابد والمساجد والأهرامات، ولقد كان هناك شيء واحد يجمع بين المصريين والمغول هو البناء.. فن البناء وعبقرية البناء، والتعبير بالأعمدة والأبراج والقباب، والشيء الآخر الذي تحسه في البناء ولا تعرفه ولا تدركه.. روح المبنى تماما كروح الملحمة أو التمثال أو الأغنية وهو شيء ستلمسه اليوم كما لم تلمسه في أي مكان آخر في العالم، ودقت الجرس وجاء خادم الفندق وطلبت الإفطار وسألت مبارك على خان: هل أطلب لك إفطارا ولكنه قال:

– إنني لا آكل شيئا يوم أذهب لزيارة التاج بل أصوم وأكاد ألبس ملابس الإحرام، تماما كما لو كنت ذاهبا إلى مكة الشريفة، إن رؤية عمل فني مثل التاج تحتاج إلى تحضير وتركيز واندماج، وهذا ما جئت لكي أنبهك إليه، إنني هنا منذ عشرين عاما، ولقد زرت التاج أكثر من ألف مرة، ولكنني في كل مرة لابد وأن أقف خاشعا متبتلاً فرحا بالحياة وكأنني أراه لأول مرة.. فرحا بالحياة، هل تستغرب أنني أحس بالفرح بالحياة أمام قبر امرأة؟.. ولكن قبل البناء كان فنهم الأول والعبقري هو الحياة نفسها، كانت الحياة لديهم فناً جميلاً، في كل شيء في الطعام والشراب واللباس، وفي الحب والحرب ومن الصباح

حتى المساء، هل تعرف أسرة ليس فيها إمبراطور عظيم. إلا فى حياته حب عظيم وكتاب عظيم وأثر عظيم.

إننى أعتقد أن ليس هناك حضارة تقربهم سوى حضارتكم أنتم المصريين. إننى أعيش فى الحضارات القديمة عشرين عاما الآن، وأنا أهيم من عالم سحرى إلى عالم سحرى، وأنا طبعا لم أبدأ حياتى دليلاً، ولم يكن فى برنامج حياتى أن أصبح دليلاً، ولا شىء أضيق به مثل أن أكون دليلاً، خاصة حينما أرزأ بهؤلاء الأمريكيين والغربيين وحينما يقفون ليبتذلوا كل شىء ويسألونك فى صخب وضجيج كم تكلف هذا البناء أو يقفون فى تفاهة جوفاء ليناردوا.. كم هو جميل.. جمال المليون دولار..

– وماذا كنت تريد إذن؟..

– لقد جئت إلى هنا زائرا كنت طالبا فى الجامعة وجئت فى زيارة عابرة، ومن النظرة الأولى أحسست أننى لن أعود للجامعة وأحسست أننى أنتمى إلى هنا إلى هذا المكان أو على الأصح إلى هذا البناء، وعدت إلى الجامعة وأنهيت دراستى فى التاريخ، وتخرجت، وكان هناك قلق مستمر فى نفسى لم يسكت إلا حينما جئت إلى هنا، وأقمت هنا، ولم أجد سوى أن أعمل دليلاً.. إننى أشعر بالطمأنينة والرضا والسكون وبفرح عميق فى نفسى

حينما أستيقظ كل صباح وأحس أننى أستطيع أن أرى التاج أو أجول فى أطلال فتح بورسكرى أو القلعة الحمراء.. أو حتى أتنفس نفس الهواء الذى تنفسه رجال ونساء وحسان وأباطرة المغول..

إن التاج فى حياتى، تماما كما كانت ممتاز محل فى حياة شاه جيهان..

– ومتى سنذهب للتاج؟..

– حينما تستعد ماديا وروحيا، قم واغتسل وأعد نفسك، إننى أريدك خاصة أن ترى التاج كما أحب أن تراه.. إننى لست متحمساً قط لضيوف اليوم.. رجال ونساء أعمال لا روح فيهم، يطوفون العالم ليزيحوا الملل أو ليسكتوا ضمائرهم القلقة أو ليبحثوا عن مغامرة مثيرة، بلا اعتبار أو احترام للكون..

وهل تدرى كيف أريكم التاج محل؟ إن لى طريقة خاصة، وأسلوبا فريداً، لى أنا فقط، إننى لا أذهب إلى التاج مباشرة ولا أواجه التاج مرة واحدة وجها لوجه، ولكننى أذهب إلى القلعة الحمراء، على بعد عدة أميال من التاج، وفى شرفة الغرفة التى سجن فيه الإمبراطور شاه جيهان أتطلع فى المرآة الصغيرة، إن قصة هذه المرآة هى قصة التاج..

– دعها حتى أغتسل..

ودخلت أغتسل وأعد نفسى للرحلة ولكنه لم يسكت، وتابع الحديث بصوت عال:

– لقد سجن أورنجزيب الصارم المتقشف أباه جيهان فى قاعة بالقلعة الحمراء، ولم يجد أبوه ما يطلبه منه، ولا ما يريده من الحياة سوى أن يرى قبرها، ولم تكن هناك وسيلة، ولم يكن هناك حل، فقد كان القبر يبعد عن القلعة عدة أميال، وتطوع مهندس عبقرى من مهندسى المغول ووضع له هذه المرآة السحرية فى أحد الأعمدة، وهى مرآة تستطيع من بعد هذه الأميال أن تعكس له صورة التاج، وكان يقضى يومه كله أمام هذه المرآة وكان الشىء الوحيد الذى عزاه حتى مات فى السجن، وراح ضحية ابنه المتزمت المتقشف الصارم.. لقد كان حبا عجيبًا.. حبا كاملاً فيه كل شىء، المجد والخلق والهزيمة والمأساة.

إن قصص الحب عادة لا تكتب كاملة وكثيرون يريدون أن يخفوا جوانبها الضعيفة أو القبيحة أو المريرة، ولكننى أحب أن أروى القصة كاملة، لقد خلق الله الحب مزيجا من الأرض والسماء، ولا يجدى أن نحاول أن نجعل منه خرافات تطربنا ولا

تعلمنا.. لقد كان شاه جيهان رجلاً وكانت ممتاز محل امرأة.. وقصتهما قصة رجل وامرأة، وعلى هذا الأساس يجب أن تروى..

لقد كانت ممتاز محل زوجة لأحد رجال البلاط حينما رآها الإمبراطور شاه جيهان فى احتفال الزهور فى عيد النيروز، أجمل احتفالات البلاط، وكانت ممتاز محل ابنة أصف خان وزير (جهانجير)..

– قف قليلاً عند هذه الأسماء يا صديقى مبارك..

– جهانجير، فاتح الكون هو الإمبراطور العظيم والد شاه جيهان، ولقد دارت كل حياته حول امرأة هى (نور جيهان) نور الكون وهذه قصة أخرى مجيدة، وقد أرويها لك اليوم أيضا، لأنها الحلقة الأولى من قصة شاه جيهان، وكان أخوها أصف خان، والفتاة المفضلة لدى عمتها الإمبراطورة العظيمة، ولكن ممتاز محل، كانت فتاة رقيقة حالمة تختلف تماما عن نور جيهان، التى كانت إمبراطورة بكل ما تتضمن الكلمة والتى كانت كل شىء فى حياة الإمبراطور وحياة الإمبراطورة أيضا وكانت محبة عاشقة بقدر ما كانت سياسية حازمة بل بقدر ما كانت محاربة قائدة، لقد قادت بنفسها الحرب ضد الجنرال

المتمرد (محبة خان) لتنقذ زوجها الموشك على الهلاك جهانجيز..

وحينما سقطت فى الأسر وحكم عليها بالإعدام سألها (محبة خان) ماذا تريد قبل أن تموت فقالت أريد أن أرى زوجى.. مرة واحدة، وحينما شهد محبة خان اللقاء، اهتزت نفسه ولم يملك سوى أن يعفو عن الاثنين..

لا تدعنى أستطرد.. إننى أريد أن أروى لك قصة التاج..

* كلى آذان صاغية يا صديقى مبارك..

– لقد ورث شاه جيهان الحب عن أبيه، وحينما التقى بممتاز محل فى حفلة النيروز، وجد نفسه على الفور، إن امرأتك هى المرأة التى تفتح لك أسرار الكون.. وأسرار نفسك والتى تحس الحياة معها فيضا متجددا منسابا وهذه هى أعظم وأندر هذه المرأة وحينئذ تظل حياتك قلقاً خاوياً ولو أحاطت بك نساء العالم كله، إن حكمة الطبيعة فى الحب عميقة عجيبة، هى حكمة الكون كله، وهى تخلق لكل رجل عظيم امرأة عظيمة، وكل مهمته أن يبحث عنها وأن يجدها، وأن يحصل عليها مهما كان الثمن، بقانون الطبيعة العميق وبحق بناء الكون أو على الأصح واجب بناء الحياة والكون.. أتدرى لماذا أشرح لك هذا؟

– لماذا؟..

– لقد رأى شاه جيهان ممتاز محل وأدرك أنها امرأته وأدرك أنها أيضا تنتمي إلى زوج آخر ضعيف من رجال البلاط فقرر أن يتخلص من هذا الزوج، وبعض المؤرخين يقول إنها بداية قبيحة لقصة مجيدة ولكنني لا أرى هذا..

– أن يتخلص من زوج ليحصل على امرأة.. هذا ليس شيئا يا صديقي مبارك..

– لا تضع المسألة هكذا بل هل يقف رجل ضعيف عقبة بين روحين عظيمين، وأن يحول بين الهند وبين كل العدل والرحمة والمجد والجمال الذي نعمت به، إن بعض الرجال الضعاف كالطفيليات يلصقون بأجساد وأرواح النساء العظيمات، ولا يستطعن هؤلاء مطلقًا التخلص منهن، إن التخلص من رجل ضعيف أقسى بكثير من التخلص من رجل قوي أو عظيم، ألا تدري هذا، ألا توافق عليه.؟

– إن هذا جزء من القصة.. أرويه فقط.. ونحكم عليه بعدئذ..

وتزوج شاه جيهان من ممتاز محل وتفجر في نفسه كل ما تفجره امرأة عظيمة في حياة رجل عظيم وكان العصر الذهبي لكل إمبراطورية المغول، لم تكن (ممتاز محل) كما قلت لك كعمتها نور جيهان تتدخل وتحسم في السياسة والاقتصاد

والحرب ولكن كانت فتاة رقيقة حالمة دافئة ناعسة خلقت للحب والحب فقط، وكانت تملك تلك اللمسة الساحرة التى تطوى كل من يقترب منها.. ولقد كان البلاط فى عصر جهانجير قائماً على المجد، أما فى عهد شاه جيهان فقد كان قائما على الحب وحده.. ولكن ممتاز محل لم تكن مجرد أنثى، لقد كان ذكاؤها وإلهامها هو أثمن ما فى الإمبراطورية ولم تكن تشارك فى الحكم أو فى الحرب، ولكن كانت مستشارته الأولى والأخيرة، وكانت من بعيد تشير فى كل شىء.. لم يكن ينشئ حديقة ولا يقيم مسجدا ولا يبنى قصراً، وهو قد زين الهند كلها بأجمل حدائقها ومساجدها وقلاعها وقصورها - إلا وترى (ممتاز محل) التصميم وتوافق عليه، ولم يكن يقضى أو يبرم أمراً أو يصدر حكماً أو يعلن حرباً قبل أن تشير (ممتاز محل)، ولم تكن هى التى تطلب أن تضع أنفها، بل هو الذى كان يحمل كل شىء إليها، وينصت حتى تجلو إلهامها وذكاءها وتشير..

وبين ذراعى (ممتاز محل) قال كلمته المشهورة: (إذا كان هناك فردوس على الأرض فهاهو.. هاهو)..

وعاش شاه جيهان فى هذا الفردوس تسعة عشر عاماً، وعاشت الهند كلها معه فى هذا الفردوس تسعة عشر عاماً

وأنجبت له أربعة أولاد وبنتين، سجل التاريخ أسماءهم جميعا، داراشيكو الفنان، وأورنجزيب الصارم، وروشنارة الحالمة، وجهاناره الوفية التى ظلت إلى جوار والدها حتى لحظته الأخيرة..

وفى كل مرة كانت تنجب غلاماً كان كل شىء كما قال يولد فى الإمبراطورية فى حياته، كان كل شىء يستعد لينتظر المولودة، وكان كل شىء يقف فى حياته، ويظل إلى جانبها حتى تلد، وحينما كانت تطلب إليه أن يغادرها وأن لا يراها وهى تتعذب، كان يبكى ويقول لها إن أجمل ما فى حياته هو رؤيتها وهى تحمل فى أحشائها أسرار الكون والخلق والإبداع.. وتغنى وتجمل بها الحياة.

ولقد ماتت (ممتاز محل) فى لحظة كهذه.. ماتت ميتة امرأة مجيدة وهى تلد، وهى تهب الحياة إنسانا جديدا.. وكان إلى جوارها شاه جيهان.. وكانت آخر كلماتها إليه (لا تتزوج بعدى.. لن تحب امرأة مثلى، لا تنس أن تزور قبرى) أنانية أو تفانياً أو غروراً أو وفاء سمه كما تشاء..

ومات كل شىء بالنسبة لشاه جيهان إلا ذكراها.. ولقد صمم على أن يعيش لهذه الذكرى وأن يجعل قبرها شيئا خالدا لم

يشيد مثله لامرأة، قبرا حيا متجددا تراه كل يوم فيهيأ لك أنه بنى اليوم فقط وأنك تراه لأول مرة.. وبعث يطلب المهندسين والفنانين والبنائين والخطاطين من روما ومن القاهرة ومن سمرقند، ومن بكين، لقد صمم على أن يجمع الإنسانية كلها فى هذا القبر..

ولم يعد هناك ما يشغله سوى بناء هذا القبر.. ولقد كان يجتمع من الصباح إلى المساء مع مهندسى المرمر القادمين من إيطاليا، أو الخطاطين العرب القادمين من بغداد أو فنانى الفسيفساء القادمين من الصين أو البنائين القادمين من نجارى وسمرقند.. ووحدت بين هؤلاء جميعا القصة.. ولعله لم يسبق أن تآلف وتآزر هذا الجمع المتباين من الفنانين فى بناء واحد مثلما حدث يومئذ، وقد هزتهم جميعا من أعماقهم القصة، ودخلت (ممتاز محل) فى حياتهم كلهم وألهمتهم نفس النقاء والصفاء والعمق الذى كانت تنشره وتلهمه فى حياتها، وأراد كل منهم أن يهب أجمل ما فى روحه ليخلد قصة حب عظيم، وأى مهمة أجمل للفنان وأمجد وأعمق إلهاما من تخليد قصة حب عظيم..

ولقد ترك كثيرون منهم أوراقا سجلوا فيها أحاسيسهم ومشاعرهم خلال البناء، وهى كلها قصائد تحية لذكرى هذه

المرأة العجيب. ولقد كتب أحدهم يقول لقد سكبت روحى كلها فى هذا القبر، ولن أبنى بعده شيئاً لأنه لم يعد لى ما أستطيع أن أخلق به أى شىء جديد.

وظل كل هؤلاء سبعة عشر عاما طويلة يبنون حتى خرج (التاج محل) تماماً كما تصوره شاه جيهان، رمزاً لخلود الحياة لا لنهايتها، ولم يكن بناء، ولكن أغنية من المرمر كما قال جواهر لال نهرو..

وحينما تم البناء أحس شاه جيهان أنه يريد أن يموت، وأن كل ما يريده من الحياة قد تحقق، وأنه لم يعد له سوى أن يذهب إلى العالم الآخر إلى حيث تحيا ممتاز محل، وإلى حيث لا يفترقان أبداً إذا التقيا..

ومرض شاه جيهان، وهيئ للجميع أن ساعته قد أذنت، وكان هو يستعجل الموت كل يوم، ولكن بدأت بمرضه قصة أخرى مريرة دامية هى قصة الصراع على العرش بين أبنائه الأربعة، وانبثق أورنجزيب، ثائرا قاسيا متدينا صارما كحد السيف وناقماً على أبيه.. على إسرافه وبذخه وضعفه أمام امرأة حتى ولو كانت أمه.

وفتك أورنجزيب بأخوته الثلاثة واحدا واحدا.. وقبض على

أبيه وسجنه فى القلعة حيث ظل سجينا مريضا عشر سنوات طوال، ولم يكن يعزيه فيها إلا المرأة الصغيرة التى كان يقف إلى جوارها، وينسى كل شىء.. ثم ابنته (جهانارا) التى نقمت على أخيها، ولحقت بأبيها لتقف إلى جواره خلال محنته التعيسة..

لا .. لم يكن تعسيا، إن من يحب مثل شاه جيهان، ومن يتعذب فى حب امرأة كممتاز محل لن يكون تعيسا، إنه يستخلص من الحياة أجمل وأنبل ما فيها..

ولقد كان شاه جيهان يقضى أيامه الأخيرة، يصلى ويذكر ممتاز محل، وينظم الشعر، وينتظر اليوم الذى يعبر هذا العالم إلى عالمها.

ولم يضق بالسجن، ولم يحنق على ابنه، ولم يبك لمصيره، لقد حرر الحب روحه، وأغنى الحب عالمه الداخلى، وكان سجنه الوحيد هو عالم ليس فيه (ممتاز محل).

وبدأت الهند كلها تهتز لقصة شاه جيهان، وتنشد قصة شاه جيهان، وتناقلها الرواة والشعراء، ومنشدو الملاحم والأساطير، ولم تلهم قصة حضارة الشرق والغرب أيضا.. ما ألهمته قصة حب شاه جيهان وممتاز محل.

ولقد جاء فى العام الماضى (روبرت مين) ليكتب القصة من

جديد، ليقدمها لهذا العصر الخاوى الأجوف، وليذكره بالقيم الكبرى التى أفلست منها الحضارة.. قيم الحب العميق العظيم الخلاق..

ولم يكتب (روبرت مين) شيئا لقد كنت أنا الذى رويت له كل شىء، ودللته على كل شىء.. وطبعا لم يشأ أن يذكر من الذى دله على مغزى القصة وجوهرها، ولم أهتم.. إن كل ما يعنينى هو أن يروى هذه القصة رجل يحسها ويعيشها ويقدمها لهذا العصر ولكل عصر.. وليس هناك ما تحتاجه الإنسانية مثل مخلصة عاطفية تنقذ روح الرجل وترفعها وتدفعها كما فعلت ممتاز محل..

لقد مات شاه جيهان، ولحق بممتاز محل. وفى التاج محل ترقد رفات (ممتاز محل) وإلى جوارها رفات شاه جيهان.. هل هناك رجل وامرأة أسعد منهما فى الحياة.. أو الموت؟..

- بالطبع لا ..
- إذن هيا بنا .. لقد استعددت للزيارة..

المحتـــوى

رقم الإيداع

٢٠٠٥/٢٤٠١

التنفيذ الطباعى:

شركة الأمل للطباعة والنشر

المراسلات

١٦أ ش أمين سامى - القصر العينى - القاهرة



إن الميزة الكبرى لمحمد عودة، تلك التى تفرقه عن أى كاتب سياسى أو مفكر أو مؤرخ آخر، أنه يكتب التاريخ - إذا كتبه، ويصور الحاضر إذا صوره - كما يجب أن يكون. إنه الباحث عن الجوهرة المكنونة فى قلب كل شىء، إنه مفتش الكون العام، وربما من هنا يأتى تحديقه الدائم وذهوله، فهو باستمرار فى حالة بحث دائم عن جوهرة الحقيقة الكبرى من الناس والأشياء والأصدقاء والثورات والتاريخ.

الثمن: ٣ جنيه

الأمل للطباعة والنشر